الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
La république algérienne démocratique populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Minister de l'ensignemant supérieur et de la recherche scientifique
جامعة 8 ماي 1945 –قالمة–
Univercité 8 Mai 1945 Guelma
كلية الآداب واللغات
Faculté: des letters et des langues
قسم اللغة والأدب العربي
Département langue et lettre arabe

الوقم:.....
N° :.....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة
الماستر
(تخصص أدب عربي جزائري)

آليات الكتابة الرّحلية عند أبي القاسم سعد الله
– رحلتي إلى المغرب أنموذجا –

مقدمة من طرف: حياة بنوري
تاريخ المناقشة: 2018/06/26

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
إبراهيم كربوش	أستاذ مساعد – أ –	رئيسا
أحلام عثامنية	أستاذ مساعد – أ –	مشرفا ومقررا
سليمة العقوني	أستاذ محاضر – ب –	ممتحنا

السنة الجامعية: 2017/ 2018

شكر وعرفان

الحمد لله عزّ وجلّ الذي منحني القدرة على إتمام هذا العمل.

جزيل الشكر و العرفان إلى الأستاذة الفاضلة "أحلام عثامنية"، أشكر فيها حسن معاملتها وتواضعها معي، كما أشكرها على مختلف التوجيهات والنصائح التي قدمتها لي.

كما أتقدم بفائق الاحترام والتقدير إلى كلّ أساتذة قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب و اللغات، جامعة 8 ماي 1945، قالمة.

مقدّمة

يعدّ أدب الرّحلة من الفنون الأدبية التي لاقت رواجا واستقطابا من قبل العرب منذ القدم، فمارسها الإنسان لأغراض و أسباب مختلفة: علمية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية.

عرفت السّاحة الأدبية في الجزائر ، في العصر الحديث انتشارا واسعا لهذا الفن ، إذ ألف فيه العديد من الرّحالة وأبدعوا، فنقلوا صورا حيّة عن مختلف البلدان التي زاروها، ومن بين أولئك الرّحالة : المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله – رحمه الله– ، فقد كان يشعر بأن عليه دينا يجب أن يقضيه لأبناء وطنه، فشرع في وصف وسرد جميع ما صادفه في أثناء رحلته بكل مصداقية وموضوعية، لذلك كان أدب الرّحلة أكثر الفنون ثقةً ووفاءً، فهو من المصادر المهمّة التي ينهل منها : الأديب، والمؤرخ، والجغرافي، والاجتماعي ...، كما أنّ ها–المصادر– ساهمت في الحفاظ على الأشكال النثرية، والأغراض الشّعرية من الاندثار والزوال، بالإضافة إلى ما تزخر به من قيم جمالية وإحداث المتعة والتشويق لدى القارئ ممّا يحفّزه على الإقبال عليها، وعلى الرّغم من أهمية هذا الفن الأدبي، إلاّ أن أدب الرّحلة الجزائري خلال القرن العشرين مازال حبيس الجرائد والمجلات والكتب ذات المواضيع المتعددة، إذ لم تخصص له كتب مستقلة، وهذا ما صعّب مهمة الحصول عليها– الرّحلات–، كما أن أدب الرّحلة الجزائري لم ينل حظّه من الدراسات الكافية إذا ما قارناه بالفنون الأخرى.

أما اختيارنا لهذا الموضوع، فكان لسببين مختلفين، الأول هو : قصد تسليط الضوء على الجانب الأدبي والفني في أدب الرّحلة الجزائري الحديث، والثاني هو: الرغبة في إزالة الغبار والتّهميش الذي يعانيه هذا الأدب ، وخاصة أننا نرى كثيرا من الباحثين والدّارسين الجزائريين انحازوا لدراسة الرواية على حساب بقية الفنون، وقد ارتأينا أن نأخذ رحلة أبي القاسم سعد الله المعنونة "رحلتي إلى المغرب" أنموذجا لهذه الدراسة.

ولقد انطلقنا في دراستنا على طرح مجموعة من الأسئلة: ما مفهوم الرّحلة؟ وما الذي يضفي عليها صفة الأدبية؟ هل حافظ أدب الرّحلة الجزائري الحديث على البناء

الشكلي للرّحلات القديمة؟ وما هي آ ليات الكتابة الأدبية التي وظفها ا لرّحالة في تدوين رحلته؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وجب علينا دراسة الموضوع وفق المنهج الوصفي التحليلي، لأنه الأنسب والأجدر لهذا الموضوع، فاشتملت الدّراسة على مقدّمة ومدخل، وفصلين، وخاتمة.

خصّصنا المدخل إلى : مفاهيم نظرية متعلّقة بالرّحلة، فتناولنا مفهوم الرّحل ة في اللغة والاصطلاح، وفي القرآن الكريم و الحديث الشريف، ثم حددنا دوافعها وأنواعها، وتطرقنا إلى أدبيّة الرّحلة، وعرّفنا بصاحب الرّحلة، كما لخصنا مضمون الرّحلة، حتّى تتضح الصورة أكثر في ذهن القارئ قبل الولوج في غمار البحث.

أمّا الفصل الأوّل: وُسِمَ بـــ " البناء الشكّلي للرّحلة"، فقمنا فيه: بدراسة العنوان، ومقدمة الرّحلة، وبنية السفر فيها، وأخيرا خاتمتها.

والفصل الثاني: عُنون بـ "آليات الكتابة في الرّحلة"، وهو فصل تطبيقي، تطرّقنا فيه إلى تقنيات الكتابة الأدبية التي اعتمدها الرّحالة في انجاز عمله –رحلته– فقمنا بدراسة أسلوب ولغة الرّحلة، ثمّ السّ رد، والوصف، والحوار، وكان التّطبيق على نماذج من الرّحلة.

لينتهي عملنا بخاتمة شملت خلاصة لأهم النتائج التي تم التوصل إليها.

ومن أهم المصادر والمراجع التي كانت عونا لنا في دراسة هذا الموضوع:

– أبو القاسم سعد الله "تجارب في الأدب والرّحلة".

– شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل.

– عبد الرّحيم مؤدن، أدبيّة الرّحلة.

– سعيد يقطين، السرد العربي: مفاهيم وتجليات.

– سميرة أنساعد، الرّ حلة إلى المشرق في الأدب الج زائري دراسة في النشأة والتطور والبنية.

وخلال إنجازنا لهذا البحث واجهتنا بعض الص عوبات منها: قلة الدّراسات التي تناولت موضوع أدب الرّحلة عند الجزائريين خاصة في العصر الحديث.

وفي الأخير لا يسعنا إلاّ أنّ، أتقدم بالشكر والعرفان إلى كلّ من ساعدني على انجاز هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذة ا لمشرفة "أحلام عثامنية" لما لها من فضل التوجيه، والإ شراف، والمتابعة، وكل الاحترام والتقدير إلى كل من علمني حرفا "أساتذتي"، وأتوجّه بالشكر للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة.

مدخل:

" مفاهيم نظرية "

1- مفهوم الرّحلة:

أ- لغة

ب- اصطلاحا

ج- القرآن الكريم والحديث الشريف

2- دوافع الرّحلة وأنواعها

3- تعريف أدب الرّحلة

4- التعّريف بالرّحالة

5- مضمون الرّحلة

01 -مفهوم الرّحلة:

حظيت الرّحلة باهتمام العديد من الدارسين والباحثين، حيث نظر إليها كل واحد منهم من زاوية محددة؛ وذلك لما تحققه من فائدة للمؤرخ والجغرافي ودارس الأدب ونقده... فركز الأول على كل ماله صلة بالجانب التاريخي، واهتم الثاني بالجانب الجغرافي، بينما ذهب دارسوا الأدب ونقده إلى الناحية الأدبيّة والفنيّة التي تتجلى فيها من خلال ما تحتويه من نصوص شعر ية ونثرية، وأساليب بلاغية وقيم جمالية، وما تقدمه من معارف ومعلومات ...، فلختلفت بذلك و جهات نظرهم فيها وتعددت تعريفاتهم لها.

أ -لغة:

نالت الرّحلة نصيبا وافرا من الشرح والتفصيل في كثير من المعاجم العربية، فقد ورد في لسان العرب : "التَّحيلُ والإرْحَال بمعنى الإ شخاص والإزعاج، يقال: رَحَلَ الرَّجلُ إذا سارَ، وأَرْحلتُ أنا، ورَ جلٌ رَحُولٌ وقومٌ رحّل أي يرتحلون كثيراً، ورجلٌ رَحَّال: عالم بذلك مُجِيدٌ له ...".[1]

حملت الرِّحلة هنا معنى السير والضرب في الأرض، ومن معاني الرّحلة، أيضا، ما ورد بمعنى الوجهة أو المقصد "الرُّحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده ".[2]

وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فار س: "رَحَلَ: الراءُ والحاءُ واللامُ أصلٌ واحدٌ يدل على مضيّ في سفر، يقال : رَحَلَ يَرْحَلُ رِحْلَةً (...) الرِّحلة: الارتحال (...) ورَحَّلَه، إذ أظْعَنَه مِن مَكانِهِ."[3]

---

(1) ابن منظور (أبو الفضل ج مال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، مادة (ر،ح،ل)، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، مج 11، ص276-277.

(2) المصدر نفسه، مج 11، ص279.

(3) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح:عبد السلام محمد هارون، مادة (ر،ح، ل)، دار الفكر، لبنان، ط2، 1979، ج2، ص497 .

يتضح من هذه التعريفات، أن مفهوم الرِّحلة يصب في قالب واحد ألا وهو الانتقال من مكان لآخر، لأن الحركة والتنقل من طبيعة البشر، فالحركة من علامات الحياة، الاكتشاف، الحيوية، النشاط، التجدد، التغي ر، والسكون من دلائل الموت العجز، الجمود، الثبات...

ب – اصطلاحا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للرّ حلة عن المعنى اللغوي، فكلاهما يشتركان في الحركة والاكتشاف، والتنقل.

فالرّحلة من فنون الأدب العربي العريقة؛ إذ يقول شوقي ضيف في كتابه "الرّحلات": "ولا نبالغ إذ قلنا إن الرّ حلات من أهم فنون الأد ب العربي، لسبب بسيط، وهو أنّها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب" [1] ، وهي تهمة قصوره في فن القص.

وتكتسب الرّحلة أهمية بالغة فنجد الرّحالة أبو الحسن علي المسعودي يقول: "ليس من لزم جهة وطنه وفتح ما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسمَ عمره على قطع الأقطار، ووزَّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه." [2]

يركز هذا القول على دور الرّ حالة الذي يفني عمره وهو يجوب الأقطار؛ واصفا للمسالك والممالك، محاولا معرفة الأخبار من منابعها الأصلية من خلال المشاهدة والمعاينة الدقيقة، فكانت الرِّحلة بذلك وسيلة مهمة لاكتشاف العالم، ويشترط في الرَّحالة أن يكون: "دقيق الملاحظة، واسع الإطلاع، عارفا بلغات القوم الذين ينزل عندهم، مطلعا على

(1) شوقي ضيف، الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، (د.ت)، ص6.

(2) أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1989، ج1، ص7.

تاريخهم، ومعتقداتهم وجغرافية بلادهم، كما يتطلب منه أن يكون رشيق الأسلوب، دقيق الوصف، يتبع طريقة الإثار" [1]

تُعَرَّفُ الرِّحلة، أيضا، حسب عبد الهادي التازي في كتابه الموسوم ب "رحلة الرّحلات" بقوله: "هي التي يتحدث فيها صاحبها عن محطاته المتبعة سواء كانت برا أو بحرا، وأخيرا جوا، مضيفا إلى هذا حديثه عما يعترضه في طريقه من مشاهدات، ومعرفا بالآثار التي شاهدها، ومعطيا نبذة من المواقع الجغرافية التي يسلكها بما تحتوي من نعوت وأوصاف." [2]

ومنه فالرِّحلة كتابة يتناول فيها صاحبها أحداث سفر وانتقالاته من مكان لآ خر، سواء كان هذا الانتقال برا، أو جوا، أو بحرا، بالإضافة إلى وصفه لكل ما شاهده وعاشه من مغامرات وأحداث مختلفة دون أن ينسى أي شاردة أو واردة معتمدا في ذلك على دقة الملاحظة والتصوير، والمصداقية التامة في نقل المشاهدات.

ج- الرّحلة في القرآن الكريم والحديث الشريف:

اهتم ديننا الحنيف بالرّحلة؛ ومن الرّحلات التي أشار إليها القرآن الكريم رحلة الشتّاء والصيّف، في قوله عزّ وجلّ : "لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ (1) إِلفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصيّفِ (2) فلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا البيتِ(3) الذِّي أَطعَمَهُم مِن جوُع وآمنهُم من خَوفٍ(4)." [3]

ارتبطت الرّحلة في القديم بالتجارة، ارتباطا وثيقا فقد قام بها أهل مكة صيفا وشتاءا إلى الشّام واليمّن.

(1) محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1999، ج2، ص476.

(2) عبد الهادي التازي، رحلة الرّحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان، الرياض، (د.ط)، 2005، ج1، ص51.

(3) سورة قريش، الآية(1-4).

كما ورد لفظ "رحل" في القرآن الكريم بمعنى الرّحلة أي البعير، في قوله تعالى : "فلمَّا جَهزهُم بجِهازِهِم جعلَ السِّقايةَ في رَحلِ أخيهِ ثم أَذَّنَ مُؤذِّنُ أيتُّها العير إنَّكمُ لسارِقون."[1]

والمفردات الدالة على الحركة كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم نذكر منها : الظعن، والإسراء، والسفر، والهجرة، والسير، والحجّ.

ونجد سميرة أنساعد في كتابها "الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري" أحصت عدد المواضيع التي وردت فيها كل مفردة فتقول مثلا : "وردت لفظة "الظعن" مرة واحدة في سورة النحل ، ونجد لفظتي أسرى وإسراء وردت في موضعين من سورة الأنفال، وموضع واحد في سورة الإسراء ، وارتبط معنى الإسراء في هذه المواضيع بمعنى السير ليلا، والسفر للتدبر في آيات الله، وتبليغها من قبل الرسول –عليه الصلاة والسلام– إلى أمته."[2]

كما شجع الرّسول صلى الله عليه وسلم أصحابه على الرّحلة وحثهم عليها بغية طلب العلم ونشر الدين الإسلامي فقال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة"[3]، وإن دل هذا الحديث عن شيء فإنما يدل على مكانة العلم وفضله، كما أن الرّحلة وسيلة مهمة لنشر الدين الإسلامي وتبليغه لعامة الناس.

من خلال ما سبق يظهر لنا أنّ الرِّحلة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف قد اقترنت "بدوافع نفعية كثيرة مثل: التجارة والبحث عن سبل آمنة للعيش أو مشاهدة

---

(1) سورة يوسف، الآية(70).

(2) سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية ، دار الهدى، الجزائر، (د.ط)، 2009، ص17.

(3) ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الفزويني)، سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، تح : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص81.

آيات الله في الأرض، والتدبر فيها، ثم تبليغها للآخرين ممن حرموا نعمة مشاهدتها"[1]، لذلك زادت رغبة الارتحال بعد انتشار الإسلام لأغراض مختلفة منها ما هو ديني، وما هو اقتصادي واجتماعي ...

إنَّ حرص الإسلام على الرّحلة راجع إلى فوائدها ومنافعها التي تعود على الفرد والأمة، فالله تعالى لا يأمر عباده بشيء إلا وكان وراء ذلك منفعة كبيرة.

2- دوافع الرّحلة وأنواعها:

ثمة دوافع متنوعة وراء القيام بفعل الإرتحال وتختلف هذه الدوافع من شخص لآخر إلاّ أنّها في الأغلب لا تخرج على أن تكون إما دوافع دينية أو علمية أو اقتصادية أو سياحية....

أ -**دوافع دينية:** يُعُدّ الدافع الديني من أقوى الدوافع المحركة للرّحلات المغربية إلى المشرق العربي، وقد اكتسبت الرِّحلة إلى الحج قيمة مقدسة، بالإضافة إلى زيارة قبر الرّسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، والحج كان ولازال رغبة تطال كلّ الناّس، فالرّحالة بمجرد وصوله إلى البقاع المقدسة يشعر بأن عليه دينا يجب أن يقضيه لمن لم تسمح لهم الفرصة بالالتحاق بتلك الديار، فيشرع في وصف كل ما صادفه في رحلته ، وعادة ما نجد الدافع الديني يكون مقترنا بالدافع العلمي في أكثر الرَّحلات.

ب- دوافع علمية : خرج الرّحالة أيضا طلبا للعلم والاستزادة منه، فكان يقطع البحار ويجوب القفار أملا في لقاء ومقابلة الش يوخ والسعي وراء تحقيق المعرفة، فنجده يخصص صفحات طِ وال للحديث عن من لقيه من أهل العلم في مخ تلف المدن التي زارها، ونستدل على ذلك من خلال رحلة أبي راس العسكري المسمّاة

(1) سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص20.

"فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربّي ونعمته" والتي تحدّث فيها عن العلماء الذين التقى بهم وأخذ عنهم وأجازوه، وناظرهم وتفوق عليهم.

ونجد المؤرخ والرّحالة عبد الرحمن بن خلدون يحث على الرّحلة في طلب العلم ويشجع عليها، حيث يقول : "الرِّحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال."[1]

ج- دوافع سياسية: تكون الرِّحلة فيها من أجل القيام بأعمال رسمية، خدمة للدولة التي ينتمي إليها الرَّحالة أو بغية تبادل الآراء وتوطيد العلاقات أو مناقشة شؤون الحرب مثل: رحلة ابن هطال التلمساني، الذي قام بها بأمر من الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري؛ لبسط سلطته ونفوذه واستغلال خيرات جنوب الغرب الجزائري.

د- دوافع اقتصادية: بهدف التجارة، وتبادل السلّع وجلب البضائع التي تتوفر في بلاد أخرى، وتنذر في بلد الرَّ حالة أو هربا من الغلاء وسعيا وراء اليّسر، وجمع المال، وتحقيق الرّبح.

ه- دوافع صحية: كالسفر من أجل العلاج، أو البحث عن الأدوية وقد يكون "هربا من وباء أو طاعون أو تلوث."[2]

و- دوافع سياحية: وهي شخصية تدفع بالرَّحالة إلى السفر لتغيير الأجواء وتجديد الهواء وتحقيق المشاهدة، والمغامرة ، وإرضاء الفضول.

بالإضافة إلى دوافع أخرى كالملل الناجم عن الحياة الرتيبة التي يحياها الإنسان أو طلبا للشهرة، وقد تصبح الرِّ حلة داء لا يمكن الخلاص منه، فيطلق على صاحبها

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، مكتبة الهدايا، دمشق، ط1، 2004، ج2، ص358.

(2) فؤاد قنديل، أدب الرّحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص20.

اسم"الجوال" أو "جوالة"[1] مثل الرَّحالة ابن بطوطة الذي قضى تسع وعشرين سنة جوالا في الآفاق، ومهما كان الدافع من وراء القيام بفعل الارتحال، تبقى الرِّحلة سلوكا حضاريا يعود بالنفع على الفرد وعلى الجماعة، وللرّحلة خمس فوائد اختصرها الإمام علي بن أبي طالب في قوله: [2]

تغرّبْ عَنِ الأَوطَانِ في طَلَبِ العُلَى وسافرِ ففي الأَسفارِ خَمْسُ فوَائِدِ

تفَرُّجُ هَمٍّ واكتســـــابُ مَعيشـــَةٍ وَعِلْمٌ وآداب وَصُحْبَةُ مـــاجِدِ

فإن قيلَ في الأسفار ذلٌ ومحنةٌ وقطعُ الفيافي وارتكاب الشدّائدِ

فمَوتُ الفتى خيرٌ له مِنْ قعُودِهِ بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسِدِ

أمّا أنواع الرّحلة، فعرفت الرّحلة أنواعا متعددة، ونوعها يتحدد من خلال الدافع في حد ذاته، فإذا كان الدافع دينيا كانت الرّحلة دينية وإذا كانت الرّحلة بهدف طلب العلم كانت علمية...

واختلف الدارسون في تصنيفها، فنجد شوقي ضيف في كتابه "الرّحلات" قسمها إلى ثلاث رحلات: "رحلات جغرافية ورحلات بحرية، ورحلات في الأمم والبلدان."[3]

في حين حصرها صلاح الدين الشامي في ستة أنواع، ثلاثة منها ظهرت قبل الإسلام وهي: "رحلة التجارة، ورحلة الحرب، ورحلة السفارة، والرّحلات الثلاث الأخرى ظهرت بمجيء الإسلام وهي: رحلة الحج، ورحلة طلب العلم، ورحلة التجوال والطواف."[4]

---

(1) ناصر عبد الرزاق الموافي، الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط1، 1995، ص28.

(2) ديوان الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب : عبد العزيز الكرم، دار الفضائل، سوريا، ط 1، 2006، ص37.

(3) شوقي ضيف، الرّحلات، ص11، 27، 48.

(4) صلاح الدين علي الشامي، الرّحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999، ص88، 112.

وتشُير سميرة أنساعد إلى تقسيم محمد الفاسي للرِّ حلة فتقول: " رأى أن عددها خمسة عشر نوعا هي الرّ حلات: الحجازية، والسياحية، والرسمية، والأثرية، والاستكشافية، والزيارية، والسيإسية، والعلمية، والمقامية، والبلد انية، والخيالية، والفهرسية، والعامة ، والسفارية".[1]

نجد من خلال هذا القول تداخل واضح على هذه الأنواع، كالرَّ حلات الدراسية والعلمية، وخلط بين الرَّ حلات الرسمية، والسياسية، والسفارية ، إلا أن الرّحلات الأكثر انتشارا وشيو عا هي : الرّحلات الدينية، والرّ حلات العلمية، والرّحلات الاقتصادية، والرّحلات الرّسمية.

3- تعريف أدب الرّحلة:

بعد أنَّ حددنا ماهية الرِّ حلة في اللغة وفي الاصطلاح و القرآن الكريم والحديث الشريف، وتطرقنا إلى أهم دوافع الرِّ حلة وأنواعها، سنحاول تحديد مفهوم أدب الرِّ حلة والوقوف عن أدبيتها، وقبل الحديث عن ذلك لابد لنا من الإشارة إلى تعدد تسمياتها، فنجد البعض أطلق عليها أدب الرِّ حلة باعتبارها كتابة أدبية تتو فر على آليات كتابية تؤهلها للانضمام إلى خانة الأدب، وهناك من يطلق عليها "الأدب الجغرافي" ومرد ذلك اهتمامها بالجوانب الجغرافية من وصف للعمران والبلدان والأقطار ...، وهناك من يصفها بالرِّحلة فقط وهذا ما يجعلها منفتحة على العديد من العلوم الأخرى؛ وهذا الوضع سهل للدارس التعامل مع الرِّحلة وفق حقله وميدانه الدراسي.

يُعُدُّ أدب الرِّحلة فنا قائما بذاته، فقد جاء في "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" أن أدب الرّحلات: "هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلِّف عن رحلاته في بلاد مختلفة ، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق،

(1) سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص23.

ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد."[1]

ويرى عبد الرحيم مؤدن في كتابه "أدبيّة الرّحلة" أن: " الرِّحلة نصا لا يمتلك أدبيته إلاّ إذا حمل خصائص الأسلوب الجميل والخصائص البلاغية المميزة المسايرة لتقاليد الكتابة العربية السائدة."[2]

يشير هذا القول إلى الجانب الأسلوبي للرّحلة من جودة السبك وجمالية الصيغ البلاغية، وحسن استخدام المحسنات البديعية بالإضافة إلى إخلاصها لتقاليد الكتابة من : تسمية العنوان، ومقدمة، وعرض، وخاتمة.

وخلص عبد الرحيم مؤدن إلى أن: "أدبيّة الرّحلة متميزة بكونها رحلة مهجنة تتفاعل فيها الأنظمة اللغوية واللهجية والصوتية بحوارية النصوص، سواء كانت رحلات سابقة أو أنماط خطابية أخرى، معارضة أو اقتباسا أو تضمينا أو تحويلا."[3]

فالرّحلة ذات طبيعة لغوية يحاور فيها الرّ حالة نصوصا أخرى من خلال الاقتباس أو التضمين أو التحويل.

وتطرّق عبد الله ركيبي إ لى أسلوب الرِّ حلة في كتابه الموسوم ب ــ "تطور النثر الجزائري الحديث"، فيقول: "ويمتاز أسلوب الرَّحلات عامة بالتسجيل والوصف الإنشائي التعبيري ويعتمد على الملاحظة الدقيقة المباشرة أو على الخيال حين يكون الوصف

(1) مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص17.

(2) عبد الرحيم مؤدن، أدبيّة الرّحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص27

للطبيعة أو الكون أو غيرها مما يفعل به الأديب الرَّحالة فيلونه بشعوره وإحساسه ويعطيه من نفسه الشيء الكثير."[1]

فالرّحلة تقوم على أسلوب الوصف الذي يعد من ركائزها الأساسية، بالإضافة إلى الملاحظة الدقيقة، وسعة الإطلاع...

إذًا أدب الرّ حلة لون أدبي يصور فيه الرّ حالة كلّ ماشاهده في أثناء رحلته إلى أماكن، وبلدان، ومسالك وممالك، وعادات وتقاليد، وقيم خاصة بمجتمعات وشعوب مختلفة، تبرز فيها علاقة الرَّحالة بالآخر، مستخدما في ذلك آليات كتابية مختلفة تؤهله لأن يصنف ضمن الأدب من مثل : جمالية الأسلوب، والصيغ البلاغية و البيانية وتوظيف العجيب والغريب، ورشاقة الألفاظ والتعابير.

4- التعّريف بالرَّحالة:

قبل البدء في دراسة رحلتنا المعنوية ب"رحلتي إلى المغرب" لابد لنا من الوقوف عند الترجمة لصاحبها، ومحاولة معرفة أهم المحطات في حياته.

أ -حياته:

ولد الرّحالة أبو القاسم سعد الله سن ة 1930م، حيث يقول في هذا الصدد : "فأنا من مواليد (حوالي) سنة 1930م، وأقول حوالي لأنه آنذاك لم يكن هناك ما يعرف (بالنقمة) أو (النكوة)، لذلك فهم قدروا عمري تقديرا."[2]

(1) عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث ، دار الكتاب العربي، الجزائر، (د.ط)، 1974، ص57.

(2) حفيظة زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، شهادة دكتوراه في الأدب العربي الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، قسنطينة، 2015، ص13.

تربى سعد الله ببلدة قمار بولاية وادي سوف بمنطقة تدعى البدوع، وحسب رأي الرَّحالة فإنها: "تسمى البدوع وأصلها عربي من البدع و الابتداع، وهو إنشاء الشيء من اللاشيء."[1]

نشأ أبو القاسم سعد الله في أسرة بسيطة، تعيش على الفلاحة، "انحدر من عائلة فقيرة جدا، بسيطة ومتدينة، تحاول أن تعيش بوسائلها على الفلاحة ، والفلاحة تقتضي وجود أرض وأملاك."[2]

عاش الرّحالة في ظروف جد قاسية مثله مثل بقية الجزائريين الذين عانوا الويلات نتيجة الاستعمار فصور لنا حالة الشعب الج زائري في تلك الفترة، فيقول: "أتذكر مثلا أن الناس عندنا كانوا يتناولون أوراقا من النباتات الجافة عوض نبتة الشاي، وكأن بهم يتخيلونها شايا، وكنا نأكل في اليوم تمرات معدودات لكل واحد منا خمس حبات حتى لا نموت جوعا(...)، وكنا لا نلبس جديدا، الكبير منا يترك لباسه للأصغر منه (...)، أذكر أيضا أن أول قميص ارتديته لم يكن جديدا لأنه كان لباسا عسكريا من مخلفات الحرب العالمية الثانية، اشتراه لي والدي مكاف أة لي على حفظ القرآن الكريم "[3]، ويواصل أبو القاسم سعد وصف الحياة الصعبة التي عاشها فقد كان ينتعل هو وأبناء جيله حذاء مصنوع من الشعر والصوف في الشتاء فقط، أما في بقية فصول السنة، فهم حفاة.

وعلى الرّغم من الحياة الصعبة التي عاشها الرّ حالة، إلا أنّه استطاع أن يتغلب على مختلف الظروف القاسية ويتحداها، فتمكن من إزالة الأشواك من طريقه، ليصنع لنفسه تاريخا حافلا بالنجاحات والانتصارات فاقتحم عالم الكتابة عن جدارة واستحقاق.

---

(1)حفيظة زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، ص14.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3)المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب- ثقافته وتعليمه:

نشأ أبو القاسم سعد الله في عائلة متدينة، أخذ د روسه الأولى في اللغة العربية وعلومها، وحفظ القرآن، وبعدها انتقل إلى تونس ليتم دراسته بجامع الزيتونة، حيث دامت إقامته بها سبع سنوات ابتداءا من سنة 1947 إلى غاية نوفمبر 1954، ثم عاد إلى الجزائر، لينتقل سنة 1955 إلى مصر لإكمال دراسته؛ "سجل في جامعتها (كلية العلوم) وتحصل منها سنة 1959 على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، التحق في أواخر سنة 1960 بأمريكا للدراسة في جامعة منيسوتا بقسم التاريخ التي قضى بها حوالي خمس سنوات حصل خلالها على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962 وعلى شهادة الدكتوراه سنة 1965، وخلال دراسته في تو نس بدأ النشر في جريدة "النهضة" و"الأسبوع" التونسيين و"البصائر" الجزائرية والآداب اللبنانية، ساهم في إنشاء رابطة القلم الجديد بتونس."[1]

وبعد عودته إلى الجزائر، بدأ التدريس بالجامعة الجزائرية، اهتم أك ثر بالتاريخ الجزائري، امتازت حياة أبو القاسم سعد الله الأدبية والثقافية بالتنوع، فكتب في الشِّ عر، والقصة، والأدب، والنقد، والتّاريخ، والتّرجمة، والرّحلة، له جملة من المؤلفات أهمها : موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، الحركة الوطنية الجزائرية، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، النصر للجزائر (شعر)، محمد العيد آل الخليفة- رائد الشعر الجزائري الحديث-، رحلة الأغواطي- رحلات جزائرية- ، تجارب في الأدب والرِّ حلة: وهو كتاب يضم مجموعة من التجارب في الأدب ، والنقد، والقصة، والشعر، وآراء في الحركة الأدبية داخل الجزائر وخارجها، كما ضمّنه رحلاته المختلفة من بينها "رحلتي إلى المغرب" والتي نحن بصدد دراستها في بحثنا.

(1) شريبط أحمد شريبط وآخرون، معجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية مخبر الأدب المقارن والعام، جامعة باجي مختار، عنابة، (د.ط)، (د.ت)، ص22.

ومنه فإنّ أبا القاسم سعد الله باحث موسوعي؛ فهو الشاعر والقاص، والناقد والمحقق، والمؤرخ والرّحالة، توفي سنة 2013 عن عمر يناهز 83 سنة، مخلفا وراءه ثروة أدبية هائلة تنهل منها الأجيال.

5- مضمون الرِّحلة:

افتتح أبو القاسم سعد الله رحلته بالحديث عن قلة الرّحلات الجزائرية القديمة نحو المغرب والأندلس في المقابل كثرة الرّحلات المغربية نحو المشرق، وأشار كذلك إلى أنّ الرّحالة الجزائريين قليلون قياسا بالرّحالة المغاربة خاصة المتوجهين نحو المغرب، وقد عرف أدب الرّحلة الجزائري رحلة يتيمة نحو المغرب هي رحلة ابن حمادوش خلال القرن الثامن عشر والتي قدم لنا من خلالها وصفا دقيقا لمدن المغرب وأحوالها، وليس ابن حمادوش أول جزائري يتوجه إلى المغرب فقد سبقه كثيرون مثل: الونشريسي، المقري ....وغيرهم.

وتعقبا لآثار هؤلاء الرّحالة، قرر أبو القاسم سعد الله التوجه إلى المغرب، إضافة إلى جمع مادة جديدة نادرة لكتابة تاريخ الجزائر الثقافي والبحث عن أسماء المخطوطات التي تهمه وتهم بعض الباحثين في المغرب والمشرق والتّ عرف على رجالات المغرب الحديث، واكتشاف كلّ ماله صلة بحضارة المغرب.

بدأت الرّحلة في فصل الصيف من 29 يوليو إلى 19 أغسطس سنة 1973، والسفر بالنسبة لأبي القاسم سعد الله ضرورة بيولوجية كالماء والهواء لا يستطيع الاستغناء عنه فهو حتمية لابد منه، فعزم الرّحالة على شدّ الرِّحال نحو المغرب، فاستغرقت الرّحلة على طائرة البوينغ التونسية بين مطار الدار البيضاء بالجزائر والنواصر بالمغرب ساعة وربعا، وبعد الوصول إلى المغرب يبد أ الرّحالة كعادة أي رحالة في وصف المدن والمسالك ومختلف المشاهدات التي وقعت عيناه عليها، فحرص على تحديد المسافات الفاصلة بدقة، وتحديد وقت الانطلاق ووقت الوصول ، وحدد لنا القيم المالية لمختلف التعّاملات التي صادفته بالدرهم المغربي، ولم ينس وصف جو المغرب الذي وصفه باللطف مقارنة بجو الجزائر الرّطب، إضافة إلى وصفه لرجال العلم والأدب الذين التقى بهم وصفا خارجيا ومعنويا فعُني بأخلاقهم وتخصصاتهم ومستواهم التعليمي والثقافي، وبما

أن الهدف من الرّحلة هو هدف علمي بالدرجة الأولى فأول ما قام به الرّ حالة هو التوّجه إلى المكتبات المغربية باحثا عن المخطوطات التي جاء من أجلها، وعمل، أيضا، على تفادي لقاء الأصدقاء والأشخاص حتى يتفرغ لبحثه فقط إلاّ أنه التقى بعدد كبير من المغاربة والجزائريين بطريق الصدفة، وقد أعاب الرّ حالة في رحلته هذه على شيوخ الجزائر وما يمتازون به من خمول وجمود فكري عكس شيوخ المشرق والمغرب، حفلت، أيضا، الرّحلة بأسماء العديد من الكتب القيمة، فقدم لنا الرّ حالة معلومات حولها (اسم الكتاب، عدد صفحاته، محتواه، الفهرس، الأجزاء...)، ولم يكتف بذلك فقط بل صور كرم وجود أهل المغرب، وبخاصة الباحثين الذين التقى بهم، فتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم في اللبّاس، والأكل، وإكرام الضيف.

وبهذا كانت رحلة أبا القاسم سعد الله رحلة علمية بامتياز، عمل فيها على جم ع مختلف المخطوطات التي تساعده في انجاز بحثه وتساعد غيره من المهتمين بالموروث الفكري العربي، فسجل ما وقعت عليه عيناه من كتب الرّ حلات، والتلّريخ، والأدب، وترقلاته المختلفة من مكتبة إلى أخرى، بالإضافة إلى جولاته في مدن المغرب وشوارعها.

فصل أول:

" البناء الشّكلي للرّحلة "

1- العنوان

2- البناء الشّكلي للرّحلة:

أ- مقدّمة الرّحلة

ب- بنية السّفر (متن الرّحلة)

ج- خاتمة الرّحلة

توطئة:

إنّ التعامل مع أي نصّ أدبي يقتضي أن يوضع له تصميما أو مخططا يسير وفقه، من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، وتقديمه للقارئ في أحسن حلّة، والنصّ الرّحلي لا يختلف عن بقية النّصوص الأخرى، فهو بحاجة إلى تنظيم وترتيب، فيقوم الرّ حالة بوضع مخطط أو تصميم لما يريد تقديمه في رحلته، ثم يسعى إلى إنجاز رحلته وفق ذلك التصّميم، والبناء الشكّلي للرّحلة عادة ما يكون كالآتي:

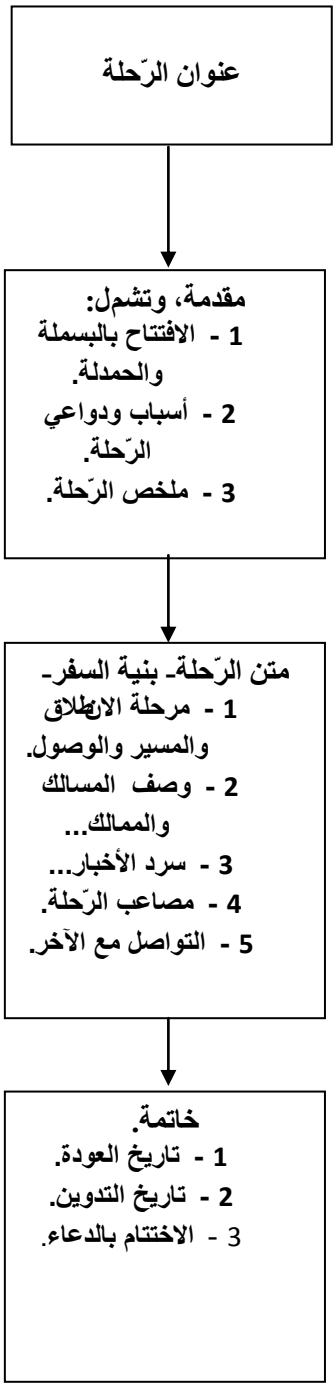

1- العنوان:

يُعُدّ العنوان المدخل الرئيسي لقراءة العمل الأدبي، فهو مفتاح الولوج إلى أعماق النصّ، بغية فهمه واستنطاقه، وفك شفراته، ونظرا للأهمية التي يكتسبها العنوان، وجب علينا الوقوف عند ماهيته المعجمية والاصطلاحية.

أ - المعنى المعجمي:

تندرج تحت مصطلح العنوان ثلاث وحدات معجمية أساسية وهي : (عنونَ، عَنَنَ، عَنّ).

جاء في معجم لسان العرب لابن منظور في مادة(عَنَنَ):" عَنَّ الشيّء يَعِنُّ ويَعُنّ عَنناً وعُنوناً: ظهرَ أمامَكَ، وعَنَّ يَعِنُ ويَعُنّ عَنّاً وعُنوناً واعتنَّ: اعترضَ وعرَضَ"[1] ويقول أيضا: "وعَنَنتُ الكتابَ وأعْنَنتُهُ لكذا، أي عرضتُه له وصَرَفتُهُ إليه، وعَنَّ اللكِتابَ يَعُنُّهُ عَنّاً وعَنَّهُ: كعنْوَنَهُ، وعَنونتُهُ وعَوْنَنتُهُ بمعنى واحد، مشتق من المعنى . وقال اللحياتي: عَنَنتُ الكتابَ من ناحيتيه، وأصله عُنَنْتُ، فلما كثرت النُّونات قُلِبَتَ إحداها واواً، ومن قال عُلوانُ الكتاب جعلَ العنوانَ لاماً لأنّ أخف و أظهر من النُّونِ(...) قال الليث: العُلوانُ لغة في العنوانِ غير جيدة، والعُنوانُ بالضم، هي اللغة الفصيحة".[2]

حملت مادة "عنن" في القول الأول والثاني معنى الظهور والاعتراض؛ وذلك أنَّ العنوان هو أول عتبة تظهر أمام المتلقي وتعترضه في العمل الأدبي؛ فيكون له حق السبق وشرف التقدم من أجل إبراز موضوع الكتاب ومحتواه.

ويضيف ابن منظور فيما يخص مادة (عَنَنَ) فيقول: "عَنَنَ الأمرَ يَعَنُّ عُنوناً ويَعَنُ وعَنِنَ يَعَنُ عَنناً وعَلانيةً فيهما إذا شاعَ وظهرَ(...) ويقال يا رجل استعلِن أي أظهِر.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ع،ن)، مج13، ص290.

(2) المصدر نفسه، مج13، ص294.

واعتلَنَ الأمر إذا اشتهرَ(...) وعُلوَانُ الكتاب: يجوزُ أن يكونَ فِعلُه فعَوَلْتُ من العلانيّةِ. يقال : عَلوَنتُ الكتابَ إذا عَنونتهُ وعلوانُ الكتابَ: عُنوانهُ"[1]

إذا مادة "علن" دلت، أيضا، على معنى الظهور أولا، والشيوع، والشهرة ثانيا، فكم من كتاب كان عنوانه سببا في شهرته وذيوع صيته.

أما فيما يخص مادة (عَنَا) فقد وردت في معجم الوسيط : "عنا الشيءَ: أبداهُ وأظهرهُ، وعنا بالقولِ كذَا، عنياً وعنايةً: أرادهُ وقصدهُ(...) وعنا فلانُ بالأمرِ: اهتمَّ وشغلَ بهِ (...) وعنا الكتابَ: اتخذَ لهُ عنوانا".[2]

نستشف من خلال هذا القول أن مادة "عنا" دلت على معنى الظهور بالإضافة إلى معنى القصد والإرادة، إذ أن العنوان لا يوضع اعتباطيا بل يجب أن يلائم مضمون النصّ ومحتواه، فالعنوان يكون مقصودا؛ فهناك قصد من وراء اختيار عنوان ما دون غيره.

ممّا سبق يتبين لنا أن العنوان يحمل دلالات مختلفة وهي:الظهور والاعتراض، والقصد، والإرادة؛ وهي من سمات العنوان الذي يعد علامة جوهرية ومدخل أولي للغوص في خبايا النصّ بهدف تحليله وتفسيره ومحاكاته، فالعنوان بمثابة الصورة المصغرة للنصّ.

ب المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف اثنان حول أهمية العنوان، باعتباره الأداة الأولى التي يتسلح بها القارئ بهدف تفكيك النصّ، وإضاءة جوانبه المظلمة والغامضة؛ " فالعنوان كلمة أو كلمات توضع

(1) ابن منظور، لسان العرب، مج13، ص288-289.

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص633.

على غلاف الكتاب، تؤشر على موضوعه، وتكون سمة دالة عليه، وعلى معنى ما يقصد إليه صاحبه في موضوع كتابه".[1]

العنوان من أهم العتبات النصيّ ة، إذ يساهم في اكتشاف معاني ودلالات النصّ الظاهرة والخفية، فهو المحور الأساسي الذي يدور حوله مضمون النصّ ، والعنوان الرِّحلي لا يختلف عن بقية العناوين الأخرى ، فقد حدد شعيب حليفي في كتابه " الرِّحلة في الأدب العربي" أربع حركات تحكم العنوان الرِّحلي، وتتمثل الحركة الأولى في " نصوص عنونت باسم "رحلة" مضافا إليها اسم صاحبها، أو الجهة الم تجه نحوها، أو نوعية تلك الرِّحلة وصفتها "[2]، وعادة ما يلجأ إلى مثل هذه ال عناوين لخفتها في النطق والتداول، وعلى سبيل الاختصار أيضا.

يتضح من الحركة الأولى أن هناك ثلاثة أنواع تحكم العنوان الرِّحلي:

ب- 1- رحلة تحمل اسم صاحبها، ومثال ذلك: فبدلا من قولنا:" تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة، نختصرها بقولنا "رحلة ابن بطوطة".

ب- 2- رحلة تحمل اسم المكان المقصود، مثل: رحلة المقرى إلى المغرب والمشرق.

ب- 3- عنوان يُحيل إلى نوعيّة الرِّ حلة وصفتها ، كقولنا: الرِّحلة الحجازية، الرِّ حلة الرّسمية....

وما تجدر الإشارة إليه، أيضا ، من خلال الحركة الأولى هو حضور كلمة " الرِّحلة " باعتبارها لازمة تجنيسية لا يمكن الاستغناء عنها في معظم العناوين الرّ حلية، ومرد ذلك تنبيه القارئ إلى نوع الفن الذي يكتب فيه المؤلف.

---

(1) عباس أحمد أرحيلة، العنوان حقيقته وتحقيقه قي الكتاب العربي المخطوط ، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015، ص23.

(2) شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي : التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل ، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2006، ص173.

أما الحركة الثانية: يطلق على الرِّحلة مفردة "الرِّسالة " مثل : رسالة ابن فضلان لأحمد بن فضلان، والسبب في ذلك هو عدم انتشار جنس الرِّ حلة، وتداخل الأجناس الأدبية، وشيوع أدب الرّ سائل[1] ، والحركة الثالثة "يُستدل على الرِّحلة بلفظة "تحفة" التي تحمل دلالة الإمتاع والإتحاف.[2]

أما الحركة الرابعة والأخيرة: فيختار المؤلف عنوان يختلف عن العناوين السابقة وذلك بالعودة إلى ألفاظ دالة على معنى الرِّ حلة، والسفَر وغيرها من المفردات التي توحي بأنّ النصّ رحلة [3].

وممّا تقدم يظهر بأنّ العنوان الرِّحلي له خصوصياته وقوانينه، بالإضافة إلى أنّ ه علامة إخبارية تقدم تلميحا لمضمون النصّ الرِّحلي.

وإذا عدنا إلى عنوان الرِّ حلة التي بين أ يدينا، يتضح لنا من الوهلة الأولى أن العنوان يمتاز بالقصر، والإيجاز، على عكس العنوان التقليدي الذي يمتاز بالطول، والمضمونيّ، والتسجيع، إذ يتكون من ثلاث ألفاظ : "رحلتي إلى المغرب"، لهذا وجب علينا تحليل هذه الألفاظ للوصول إلى مضمون النصّ الرِّحلي، واستنطاقه، ومحاولة فهمه وتفسيره.

نستهل التحليل بلفظة "رحلتي" وقد سبق وذكرنا أنّها تحمل دلالة الانتقال من مكان لآخر، قصد أهداف وغايات تختلف من رحالة لآخر، وبمجرد قراءة لفظة "رحلتي" فإنّ أول ما يتبادر إلى الذهن أن هناك حركة، وسفر من مكان إلى مكان آخر، وهذا المكان هو المغرب، والرَّحالة لم يتجه إلى المغرب اعتباطيا: بل قصدها لغرض علمي وهو البحث عن مخطوطات تساعده على إنجاز بحثه المعنون بتاريخ الجزائر الثقافي، وهذا لم يمنع الرَّحالة من وصف مسالك، وعادات أهل المغرب ونقل جميع ما شاهده.

---

(1) شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي، ص176.

(2) المرجع نفسه، ص177.

(3) المرجع نفسه، ص178.

كما ينبغي التنويه هنا ،أيضا، إلى أن العنوان من وضع صاحب النصّ الرِّحلي، ونستدل على ذلك من خلال ياء المتكلم في لفظة "رحلتي"، فالرَّحالة أراد أن يبين للقارئ أنّه يتحدث عن رحلة خاصة به، وكما هو واضح في العنوان استخدم الضمير الدال على الأنا، وجاء الأنا بضمير المفرد، الذي طغى، أيضا، على متن الرِّحلة مثل: زرت، اعتدت، رأيت، تعرفت...

حيث أراد الرَّحالة من خلاله إثبات ذاته وإبراز همته، فنجده يتغنى بالأنا بصورة ملفتة للانتباه من بداية الرِّحلة إلى نهايتها.

جاء عنوان الرِّحلة من حيث التركيب النحوي، جملة اسمية خالية من الفعل، وهذا ما يجعل العنوان أكثر قوة ودلالة حيث تتكون من:

رحلتي	إلى المغرب
خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذه" مرفوع على الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة للياء، وهو مضاف، وياء المتكلم ضمير متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه.	جار ومجرور

إنَّ الجملة الاسمية في العنوان بدأت باسم نكرة، يعرب خبراً لمبتدأ محذوف تقديره "هذه"، وقد يكون سبب حذف المبتدأ قلة الاهتمام به مقارنة بالخبر، فالرَّ حالة حذف المبتدأ المقدر ب"هذه" لأن ذهنه مشدودا أكثر إلى الخبر "رحلتي"، وأضاف الرَّحالة إلى هذا الخبر شبه جملة(جار ومجرور) (إلى المغرب) متممة له.

إذا جاء عنوان الرِّ حلة موجزاً ومختصراً، دالاً على مضمونها ومن خلاله حدّ د الرَّحالة المكان المقصود وهو المغرب.

2- البناء الشكلي للرِّحلة:

يقسم الرَّحالة عادة رحلته إلى :

أ- مقدّمة.

ب- بنية السَّفر(المتن).

ج- خاتمة.

أ -مقدّمة الرّحلة:

تتخذ المقدمة مكانة أساسية في بناء النصّ الرِّحلي، فهي التي تفتح شهية القارئ، وتهيئه وتوجهه لمواصلة قراءة النصّ أو العكس، وتكون " المقدمة أشد ارتباطا بالنصّ باعتبارها بيانا يوضح خلفيات الرِّ حلة، وبعض الأشياء التي لا يبوح بها النص " [1]، فالمقدمة من العتبات النصيّة المهمة، التي ترتبط بالنصّ أشد ارتباط، وتعمل على إضاءة جوانبه، ومن هنا" اعتبر التقديم في النصوص الرِّحلية ضرورة واجبة أكثر منها في أشكال أخرى نظرا لطبيعة النصّ الذي يحتاج إلى تقديم بعض المعلومات والإيضاحات حول الرّحلة، وأحيانا لتبريرات معينة".[2]

لذلك كانت المقدمة من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها، وقد تختلف المقدمة من رحلة إلى أخرى، حسب طبيعة الرّ حلة، ومكانة الرَّ حالة وقدرته العلمية والثقافية والدينية...، والمقدمة قد تطول وتقصر، إلاّ أنّها عادة لا تخرج عن ثلاثة أشكال:

أ- 1- مقدّمة يذكر فيها الرّحالة أسباب ودواعي الرّ حلة، ونستدل على ذلك من خلال مقدمة رحلة ابن بـطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمص ار وعجائب الأسفار "، حيث يقول: " كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب

(1) شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي، ص170.

(2) المرجع نفسه، ص184.

الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام "[1]، فالرَّحالة حدد لنا سبب الرِّحلة وهو حج بيت الله وزيارة قبر الرّسول صلى الله عليه وسلم.

أ- 2- مقدّمة تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الكريم، ومن الأمثلة ال تي نسوقها في هذا المقام رحلة أبي راس المعسكري "فتح الإله ومنّته في التحّدث بفضل ربيّ ونعمته"، إذ يقول: "الحمد لله الذي خلق الإنسان من نطفة أمشاج، وأنشأه من تركيب ماء ومزاج، وجعله ذا افتقار واحتياج، إلى تدبير وعلاج، في ضوء نهار وليل داج، والصلاة والسلام على نبيه محمد الصادق بآياته: المعجز ببياناته، المصطفى لحمل الأمانة العظمى، وحباه الرفيع والمحل الأسمى".[2]

أ- 3- مقدّمة تقدم ملخصا للرّ حلة، وطريقة تقسيمها وتبويبها، حيث يعرض ال رّحالة مضامين الرّحلة وفصولها وعناوينها.

إن المقدمة تسمح للقارئ على التعرف على موضوع النصّ والإحاطة به من جهة، والكشف عن أسلوب الرّحالة وبراعته في استخدام آليات كتابية إبداعية من جهة أخرى.

جاءت مقدّمة رحلة سعد الله المعنونة بـ "رحلتي إلى المغرب" موجزة، حيث استهل فيها الرّ حالة خطابه بالتنويه إلى الرّ حلات السابقة وأثرها في النف وس، فيقول: "كثرت الرّحلات المغربية نحو المشرق حتى أن من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية

(1) ابن بطوطة(محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظّ ار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1، 1987، ج1، ص33.

(2) أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنّته في التّحدث بفضل ربـّي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلميّة"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، (د.ط)، 1990، ص15.

مثلا لا يمكنه أن يستغني عن رحلات التمغروني، والعبدري، والبلوي، والعياشي، والغساني، والزياتي، والجامعي، وابن زاكور، والدرعي وأضرابهم".[1]

وأشار الرّحالة في مقدّمته إلى بعض الأسماء التي توجهت إلى المغرب، إذ يقول : "وليس ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه إلى المغرب، فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرفي "[2]، وذكر الرَّحالة الدافع من وراء فعل الارتحال إلى المغرب، وفي هذا الصدد يقول: " ولا أكتم نفسي أن الرّحلة كانت ذات فائدة عظيمة لي، إذ لم أجمع فقط خلالها مادة جديدة لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي، ولكنني تعرفت أيضا على عدد من رجالات المغرب الحديث (...)"[3] ، ويؤكد، أيضا، عن الهدف من الرّحلة، بقوله : "والتزود من مخطوطات خزائنه لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي"[4].

إذا كان الهدف من الرّحلة هو هدف علمي بالدرجة الأولى، ذلك أن الرّحالة قصد المغرب بغية إتمام كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، والبحث عن مخطوطات تفيده في عمله، وقد حدد لنا الرَّحالة في المقدمة المدة التي قاضها في المغرب فيقول : "زرت المغرب لأول مرة خلال فصل الصيف الماضي من 29 يوليو إلى 19 أغسطس 1973"[5]، وبهذا قضى الرَّحالة واحد وعشرين يوما وهو يتردد بين المكتبات ومكان إقامته.

وتحدث في المقدمة، أيضا، عن أهمية السفر، فهو –بالنسبة للرّحالة– ضرورة لا يمكن الاستغناء عنه، حيث يقول :" السفر بالنسبة لي كالماء والهواء، ولو انقضت على

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّ حلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1983، ص203.

(2) المصدر نفسه، ص204.

(3) المصدر نفسه، ص204–205.

(4) المصدر نفسه، ص205.

(5) المصدر نفسه، ص205.

سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست بالاختناق حتىّ في وطني "[1]، وإن دل هذا القول على شيء يدل على وعي الرّحالة وقناعته بما قد يحققه السفر من فائدة، ليس على المستوى الشخصي فحسب، وإنمّا على المجتمع ككل.

وما تجدر الإشارة إليه، طغيان ضمير الأنا على مقدّمة الرِّحلة، مثل: ذهبت، سجلت، رحلتي، عودتي، وجدت، نفسي، لي ...، حيث " ترسم بنية الضمائر في الخطاب المقدماتي الرِّحلي مرآة أولية لفهم طبيعة اشتغال الذات / الأنا في النص، خصوصا حينما يتعلق الأمر بنص شخصي ينبني على فعل وسلوك واستيهامات ذاتية "[2]، وهذا ما يكسب الرّحلة مصداقية أكثر.

والرِّحلة التي بين أيدينا عبارة عن تجربة شخصية خاصة بالرَّحالة؛ فهي يوميات صب فيها مشاعره، ومشاهداته، وقراءاته، ولقاءاته مع شي وخ العلم، فمن البديهي أن يوظف الضمير الدال على الأنا بما أنّها تجربة شخصية فعلية واقعية صادقة.

ب- بنية السّفر (متن الرِّحلة):

يُعُدُّ متن الرِّحلة الوعاء الذي يصب فيه الرَّحالة كل مشاهداته وأخباره أثناء تنقلاته في سفره، وما صادفه من أمور وأشياء، وما يوجد في جعبته من أشعار وحكم، حيث يقوم بتضمينها في رحلته، والمتن الرِّحلي يخضع عادة إلى ثلاث مراحل، مرحلة أولى وتتمثل في مرحلة خروج الرَّحالة من وطنه، ونطلق عليها مرحلة الانطلاق أو الخروج، "والتي تشمل عناصر أساسية أولى من عزم الرَّحالة على السفر، والشروع في تحقيقه كتجهيز لوازمه، وتوديع الأهل، والتوجه إلى أولى نقاط الخروج، وهي تمثل لدى الرَّحالة مرحلة صعبة، وحافلة بالمشاعر القوية، لما تحمله من شوق إلى السفـر، وتحقيق المراد، وتغيير

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص205.

(2) شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي، ص195.

للواقع" [1]، وقد كان انطلاق رحلة سعد الله إلى المغرب واضحا وبسيطا، فكان السفر جوا، حيث انطلق الرَّحالة من مطار الدار البيضاء بالجزائر خلال فصل الصيف في 29 يوليو سنة 1973 على متن طائرة البوينغ التونيسية، وقد عبر الرّحالة عن رغبته الجامحة في السفر، من أجل تغيير الهواء، لصقل الذاكرة، وتجديد العاطفة.

أما المرحلة الثانية، فتسمى بمرحلة المسير أو السفر،" وتضم كل أعمال السفر من ذهاب وإياب، وكل ما يقوم به الرّحالة من نشاط حركي، وبصري، وكلامي ، وغيرها من النشاطات"[2]، خلال هذه المرحلة يسعى الرّحالة إلى رصد كل ما وقعت عليه عيناه، من سرد للأحداث، وذكر للتواريخ، وعرض عادات وتقاليد أهل البلد المتجه نحوه، وهذا ما نجده حاضرا في رحلة أبي القاسم سعد الله، حيث حدد لنا الوقت الذي استغرقته الرّحلة على متن الطائرة بدقة فيقول : "وقد استغرقت الرِّحلة على طائرة البونيغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء ب الجزائر، ومطار النواصر بالمغرب ساعة وربعا "[3]، ثم شرع –الرّحالة– في وصف طريق المسير جوا، فيقول : "وكانت الطائرة قد حلقت فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما توغلنا في اتجاه الغرب، وكانت تطير بمحاذاة البحر، ثم حوالي منتصف الطريق انحرفت إلى اليسار وتعمقت في المناطق الداخلية بالمغرب، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أن الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النواصر " [4]، وتحدث الرّحالة، أيضا ، أثناء مرحلة المسير عن الأشخاص المرافقين له في الرّحلة، فكان من بينهم : جزائريين، وتونسيين، ومغاربة، إذ يقول : "أن الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة، فقد تجمع

(1) سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص110.

(2) المرجع نفسه، ص111.

(3) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص206.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة: لطاقة التونسي، وإنسانية الجزائري، وشهامة المغربي".[1]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن وسيلة السفر –الطائرة– السريعة والمريحة، عملت على اختزال الكثير من التفاصيل والأحداث، عكس الرّحلات القديمة التي يسرد فيها الرّحالة تفاصيل الطريق والصعوبات التي يواجهها من قطاع الطرق، وسرقات وغيرها من الأحداث.

وتتمثل المرحلة الثالثة و الأخيرة –وهي بيت القصيد– في مرحلة الوصول "وهي مرتبطة دلاليا بمعنى الاتصال، ولا يقصد بالوصول آخر الرّحلة ونهايتها، ورجوع الرَّحالة إلى مقامه الأول (...) فحسب، بل يحوي، كل مشاهد الوصول إلى كل مكان يبدو للرّحالة جديدا عليه، أو هو مقصد الرّحلة الأساسي، أو ما يعرف بالمكان".[2]

والمكان المقصود في هذه الرّحلة هو المغرب، فبعد أن وصل الرّحالة إلى المغرب، وخضوعه إلى الإجراءات اللازمة في مطار النواصر، اتجه إلى موقف سيارات الأجرة، حيث لاحظ كثرة الازدحام والضجيج، وبعد مفاوضات ومناورات مع أصحاب سيارات الأجرة، تمكن من الحصول على مقعد داخل إحدى السيارات ولم يكن بمفرده، إذ يقول: "وركب في نفس السيارة ثلاثة رجال وامرأتان(...) بالإضافة إلى السائق "[3]، بعدها نزل الرّحالة بفندق القولوا الواقع في زنقة شارع حمص المتفرعة عن محمد الخامس، بعد أن أدركه التّعب، حيث يقول: "ولما كنت متعبا توجهت إليه وأخذت فيه غرفة بأحد عشر درهما" [4]، وفي صباح اليوم التالي، خرج الرّحالة من فندق إقامته متوجها إلى الخزانة العامة بحثا عن المخطوطات التي تهمه في بحثه، وفي هذا المقام يقول: "على الساعة

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص 206.

(2) سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص111.

(3) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص206.

(4) المصدر نفسه، ص207.

الثامنة توجهت إلى الخزانة العامة (المكتبة الوطنية)بحثا عن المخطوطات التي جئت من أجلها "[1]، ويواصل حديثه عن كل ما صادفه في أثناء إقامته بالمغرب، فلم يستثن أي شاردة أو واردة، فتحدث عن شيوخ العلم الذين التقى بهم، ومبدلات الكتب بينه وبين رجال العلم، كما تطرق إلى وصف عادات أهل المغرب في الأكل واللباس، ووصف شوارعها، وبناياتها، وأسواقها، ومكتباتها.

ومنه نخلص إلى أن خطاب المتن- بنية السّفر- في الرّحلة شمل ثلاث مراحل: مرحلة انطلاق الرّحالة من الجزائر وصولا إلى المغرب، عن طريق الجو، ومرحلة المسير، ومرحلة الوصول، وما يلاحظ أيضا على متن الرّحلة أن الرّحالة اعتمد على الإيجاز في كثير من الحالات والسبب في ذلك عدم تخصيصه للرّحلة كتابا خاصا مستقلا، إذ ضمنها في كتاب متعدد الموضوعات (تجارب في الأدب والرّحلة).

ج- خاتمة الرّحلة:

لكل بداية نهاية، وآخر محطة نقف عندها في النصّ الرّحلي، هي الخاتمة وهذه الأخيرة يعرفها محمد التونجي بأنها: " القسم الأخير في أي أثر أدبي".[2]

فهي آخر ما يقف عنده قارئ الرّحلة، وتختلف من رحلة لأخرى، شأنها شأن المقدمة، فقد تطول لتشمل عدة صفحات أو العكس لا تتعدى بضعة أسطر.

ختم الرّحالة الجزائري سعد الله رحلته العلميّة، بقوله:" ولعلي لو ذكرت هنا ما وقعت عليه عيناي من كتب الرّحلات والتاريخ والآداب خلال رحلتي لأثقلت على القارئ، وأما ما طالعته أو قيدته عن الجزائر بأقلام جزائريين فحدث عن البحر ولا حرج وهو بيت

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص209.

(2) محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ص391.

القصيد من كل الرّحلة، ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد ويستزيد منه المستزيد".[1]

والملاحظ على خاتمة الرّحلة أنها جاءت موجزة، وقد أشار الرّحالة إلى ذلك، وصرح، أيضا، بإمكانية سرد المزيد من المعلومات في مناسبة أخرى، وقد ذكر الرّحالة تاريخ التدوين "14 نوفمبر 1973"[2]، حتى يبين للقارئ الفترة التي قضاها في تدوين رحلته والتي تقدر تقريبا بثلاثة أشهر بعد عودته إلى أرض الوطن- الجزائر- في 19 أوت 1973م.

وبعد هذا العرض للبناء الشكلي الذي سار وفقه الرّحالة سعد الله في نسج أحداث رحلته، يظهر أنّها قامت على نفس النّهج الذي سارت عليه الرّحلات القديمة من: تسميّة العنوان، ومقدمة، وعرض، وخاتمة، وسنعرج في الفصل الآتي إلى آليات الكتابة التي اعتمدها الرّحالة في تدوين رحلته.

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص234.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فصل ثان:

" آليات الكتابة في الرّحلة "

1- أسلوب ولغة الرّحلة

2- تضمين الشّعر

3- السّرد

4- الوصف

5- الحوار

توطئة:

يُعدُّ أدب الرّحلة شكلاً نثرياً له مميزاته و سماته الخاصة، فالرّحالة وهو ينتقل من مكان لآخر –في أثناء سفره– ينقل للمتلقي مختلف المشاهدات والمغامرات التي يشاهدها عياناً أو يسمعها من الآخرين، كما ن جده، أيضا، يُعنى بالتفاصيل و الجزئيات دون أن يستثني أي كبيرة وصغيرة بكل صدق وموضوعية، فيمنحنا بذلك صورة واضحة عن البلد الذي زار ه من خلال ما يقدمه من معلومات ومعارف ثقافية، وتاريخية، وجغرافية، واقتصادية وغيرها.

والرّحالة في أثناء عملية نقله أو تدوينه لنصّ الرّحلة، يعتمد على آليات، و وسائل كتابية مختلفة، ما يكسب الرّحلة صفة الأدبية؛ حيث أصبح أدب الرّحلة من أهمّ الفنون الأدبية لغلبة الطابع الأدبي على كثير من نماذجه.

ومنه نتساءل: ما هي آليات الكتابة التي اعتمدها الرّحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله في تدوين رحلته؟

1. أسلوب ولغة الرّحلة:

إن الحديث عن اللغة الموظفة في متن الرّحلة، يستدعي منّا الحديث عن أسلوبها، ويُعرّف هذا الأخير على أنّه: "طريقة يستعملها الكاتب في التّعبير عن موقفه و الإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواه ا، لاسيما في اختيار المفردات، وصياغة العبارات، والتشابيه والإيقاع" [1].

فالأسلوب هو الطريقة التي يتبعها المؤلف في إبداع نصّه، وفق أفكار منتظمة، وألفاظ مختارة ومنتقاة، فهو العنصر الذي يتميز و ينفرد به كلّ كاتب عن آخر، فكثيرا ما نعرف الكاتب من خلال أسلوبه.

(1) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص20.

وإذا عدنا إلى المدونة التي نشتغل عليها، نجد أنّ الرّحالة أبو القاسم سعد الله اعتمد على أسلوب اليوميات أو المذكرات لأن المذكرات في الأساس هي عبارة عن تدوين لأحداث عاشها صاحبها، وهذا ما نجده حاضرًا عند رحالتنا، فقد عمل على تسجيل يومياته أول بأولٍ، ويعترف بذلك، إذ يقول : "وقد سجلت أثناء رحلتي (...)، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي" [1]، فجاء أسلوبه مباشرا بسيطا واضحا، بع يدا عن التّكلف و الغموض والغرابة و الإيحاء، كما وظّ ف الأسلوب الخبري لأنّه الأنسب والأجدر في نقل الوقائع، والمشاهدات، و وصف الموصوفات للمتلقي الذي يحس و كأنّه رحالة، فمثلا، يخبر المتلقي بمختلف المسافات الفاصلة بين مدن المغرب الذي تنقل في أرجائها، فيقول: "تبلغ المسافة بين الدار البيضاء والرّباط حوالي تسعين كيلومترا قطعناها في ظلام الليل الدّامس، ورطوبة المحيط الأطلسي و ازدحام السيارات ..." [2]، أخبرنا الرَّحالة من خلال هذا النصّ عن المسافة التي تربط بين الدار البيضاء و الرّباط، والتي تقدر بتسعين كيلومترا.

أما فيما يخص لغة الرّحلة، فينبغي التنويه إلى أنّ اللغة أهم ركيزة يقوم عليها أيّ عمل أدبي، فهي وسيلة يعبر بها المؤلف عن أفكاره ومختلف آرائه ووجهات نظره، و هذا كلّه يتطلب جهدا، فمسألة اختيار اللغة ليس بالأمر الهين، و ذلك أن الكاتب لا يكتب لنفسه بل يكتب لغيره – المتلقي–، في هذا المقام نجد رأي الجاحظ الذي يقول : "ينبغي للمتكلِّم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات، فيجعل لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلاما، و لكل حالةٍ من ذلك مقامً ا، حتَّى يقسمَ أقدار الكلام على أقدار

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص204.

(2) المصدر نفسه، ص207.

المعاني، و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" [1].

مفاد هذا الكلام: أنّ تكون اللغة متعارفا عليها، أي لا تكون مبهمة لا يفهمها المتلقي، وأن يجعل المؤلف لكلّ مقام مقال، فلغة المتكلم (المؤلف) يجب أن تكون على قدر لغة المستمع (المتلقي)، فاللغة بمثابة همزة الوصل بين المؤلف والمتلقي.

والذي لاحظناه على لغة الرّحلة أنّ ها لغة مألوفة بسيطة، عربية، خالي ة من الألفاظ الأجنبية والعامية، فهي لغة تمثل الوضوح والسّهولة، و هذا ما تقتضيه طبيعة الرّحلة، فغرض أبو القا سم سعد الله هو تبليغ مشاهداته و الإخبار عن الجوانب ال علمية والثقافية والتاريخية التي استهوته في المغرب، لذلك عمد إلى التّعبير السهل، المبسط لينقل تجربته الصادقة دون تكلف و مبالغة، فيقول: "كانت الطائرة قد حلقت بنا فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما توغلنا في اتجاه الغرب، وكانت تطير بمحاذاة البحر، ثم حوالي منتصف الطريق انحرفت إلى اليسار، و تعمقت في المناطق الداخلية بالمغرب " [2]، فكما نرى في هذا النصّ –وكذا بقية نصوص الرّحلة– أن اللغة بسيطة تميل إلى لغة المحادثة العادية اليومية، قصد بها الرّحالة نقل تجربته ومشاهداته بصدق و بقدر كبير من الموضوعية، فنجده يصف لنا حالة الطائرة وهي تحلق في السماء بلغة واضحة ومفهومة، وإِذَا ما وظف ألفاظ مبهمة سرعان ما يقوم بشرحها وتفسيرها لإزالة اللبس و الغموض الذي يكتنفه ا، فيقول مثلا –في شرح لفظه آ كدال– " وآكدال تعني باللهجة المحلية (كثير الشجر) أي الغابة"[3].

---

(1) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان و التبيّين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4، 1975، ج1، ص138–139.

(2) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص206.

(3) المصدر نفسه، ص218.

يحفل أدب الرّحلة عموما بالمحسنات البديعية كالطباق والجناس، والصور البلاغية كالاستعارة والتشبيه، إلاّ أنّ الرّحالة أبو القاسم سعد الله وظفها دون إسراف يخرجه إلى حد التّكليف في رحلته، فوظف الطباق، والجناس والسجع بنسبة ضئيلة، ومن أمثلة الطباق قوله: "عارفًا بالموجود من المخطوطات والمفقود منها " [1]، و قوله: "تسجيل الأرقام الصادرة والواردة من المخطوطات" [2]، إن التضاد بين كلمتي الموجود والمفقود ولفظتي الصادرة والواردة ساهم في توضيح المعنى أكثر؛ فبالأضداد تتضح المعاني و تترسخ في ذهن المتلقي أكثر.

كما نجد الجناس في قوله : "ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد، ويستزيد منه المستزيد" [3]، إنّ التّجانس بين مفردتي المستفيد والمستزيد زاد من جمالية وشعرية النصّ، ومنحه جرساً موسيقيا ترتاح له النفس و تطرب له الأذن، أمّا السَّجع فظهر في قوله: "أما في الزيارة الثانية فقد جمعنا فيها لذيذ الطعام وشهي الكلام"[4].

كما نجد، أيضا، المقارنة حيث وظف الرّحالة المقارنة في الكثير من المواقف، فقارن بين ما شاهده في المغرب، و ما يوجد في وطنه الجزائر؛ فيقول عن جو المغرب عندما قارنه بجو الجزائر "كان طقس الرِّباط أكثر لطفًا من جو العاصمة الرطب" [5]، فقد عبر الرّحالة هنا عن إعجابه بجو المغرب ونسماته المنعشة.

كما قارن الرّحالة بين شيوخ المغرب والمشرق وما يمتازون به من نشاط وحيوية، وبين شيوخ بلده – الجزائر– وما يمتازون به من جمود و كسل، فيقول: "وأثناء وجودي بالخزانة العامة دخل شيخ طاعن في السن على رأسه قبعة (...) وعليه سمة المصريين،

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص209.
(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(3) المصدر نفسه، ص234.
(4) المصدر نفسه، ص224.
(5) المصدر نفسه، ص208.

إنه الأستاذ عبد الله عنان المؤرخ المصري (...) وقد تذكرت عندما رأيت ما عليه هذا الشيخ من الحيوية والنشاط والإنتاج شيوخ الجزائر وهم من الكسل العقلي و جمود القريحة وخمول الذكر، ما يفجر قلب الصخر" [1].

يتّحسر الرّحالة هنا و يتّأسف عن الوضع الذي آل إليه شيوخ بلده، فهم يعانون الكسل العقلي والجمود الفكري، وقلّة الإنتاج والإبداع، فقلبه يكاد ينفطر من حال الثقافة في بلادنا.

تطرق أبو القاسم سعد الله، أيضا، إلى المقارنة بين الراتب الشهري الذي يتقاض اه الأستاذ الجامعي في المغرب، و راتب الأستاذ الجامعي في الجزائر، إذ يقول : "كما علمت أن مرتب الأستاذ الجامعي في المغرب قد يصل إلى ما يعادل أربعة آلاف دينار جزائري شهريا"[2]، وهذا حين أقبل صديقه عبد الكريم على توسيع منزله بزيادة طابقا فيه، فيرى الرّحالة أن مثل هذا المشروع "لا يقدم عليه الأستاذ الجزائري إلا في الأحلام !" [3]، وذلك لغلاء المعيشة من جهة وقلّة الرّاتب من جهة أخرى.

من خلال المقارنة التي أجراها الرّحالة الجزائري سعد الله نستشف رؤيته للآخر (أهل المغرب)، فكانت نظرة إع جاب وانبهار بالتطور العمراني والثقافي، و حب للبلد الشقيق – المغرب–؛ فأُعجب بشوارعها ومطاراتها ومراكزها الثقافية وحتّى شواطئها وأضرحتها، وكلّ ما كان يصادفه في مسيرته، كما أُعجب بذلك الاهتمام البا لغ الذي يوليه المثقفون بالكتب والمخطوطات، و قد شد انتباهه أنّ "الكتب عند المغاربة م جلدة، بعضها بطريقة فخمة، و التجليد عندهم جيد و رخيص الثمن بخلاف عندنا، بالإضافة إلى أنّه صناعة محلية رائجة، يتفنن فيها الحذاق بالخطوط والرسوم العربية الجميلة" [4].

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص213.

(2) المصدر نفسه، ص217.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص224.

كما أشاد الرّحالة بحركة التعريب في المغرب، فالتّعريب يخطوا أشواطا كبيرة "وتساند هذا التيار تقاليد حضارية عريقة، وعائلات أثيلة كانت وما تزال تلعب دورا بارزا في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، ونخبة متوثبة تلقت ثقافتها في المغرب أو في المشرق وتقف إلى جانب التعريب كمطلب وطني" [1].

إذًا كانت رؤية الرّحالة لأهل المغ رب رؤية تمتاز بالإعجاب الشديد والثناء على حسن التنظيم، و المحافظة على شؤون الثقافة و التعليم من جهة، وعلى كرم الضيافة حيث اعترف بجميلهم وفضلهم وما قدموه له وللثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى.

كما لا يخل و نصّ الرّحلة من أنواع المجاز والاستعارة و التشبيه، فمن أمثلة الاستعارة المكنية قوله مصوّرا الجو الخانق في الرباط : "غضبت شمسه وكثف ضبابه واشتعلت حرارته"[2]، حيث شبه الرّحالة الشمس (المشبه) بالإنسان (المشبه به محذوف)، وترك لازمة دالة عليه وهي الفعل "غضب" الذي استعاره من الإنسان وأطلقه على الشمس للدلالة على شدة الحر، فرغم احتجاب الشمس وراء الضباب إلاّ أن أثرها أكثر حدّة.

ونجد التشبيه في قوله: "وتطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنها بقايا كثبان الثلج في غابة من غابات الشمال " [3]، فهذا تشبيه كامل الأركان : حيث شبه الرّحالة المنازل البيضاء (المشبه) لشدة بياضها (وجه الشبه) بكثبان الثلج (المشبه به) وأداة التشبيه هي: كأن، و قد ساهمت هذه الصور في إيضاح النّص وإعطائه رونقا جماليا.

طغت على الرّحلة الجمل الفعلية، حيث وظف الرّحالة الجمل الفعلية الواصفة لتأكيد أحداث وأخبار رحلته مما أكسبها طابعا حركيا ديناميكيا، ومثال ذلك قوله : "وقد أطلعني الأخ شحلان على مخطط بحثه و أبديت له فيه رأيي بطلب منه، وهو متأكد من صعوبة عمله، ولذلك لا يتوقف عن المطالعة و عن تعلم اللغة العبرية التي عليه أن يقارن بين

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص230.

(2) المصدر نفسه، ص228.

(3) المصدر نفسه، ص209.

نحوها ونحو اللغة العربية، و اذكر أنني مرة وجدته في بهو الفندق يقرأ في نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالعبرية قام بترجمتها يهودي" [1].

كما نوّع الرّحالة في استخدام الضمائر المتصلة بالأفعال، فنجد أفعال أسندها إلى ضمير الجمع المتكلم مثل : وصلنا، دخلنا، توجهنا، تناولنا ... وأخرى أسندها إلى ضمير المتكلم المفرد، مثل : اقتربت، رأيت، زرت ... وهذا التنويع في الضمائر أكسب الرّحلة حيوية وتفاعل بين الأنا (الرّحالة) والآخر (أهل المغرب).

2. تضمين الشِّعر:

يُعدّ الشِّعر من أقدم الفنون الأدبية، فهو ديوان العرب، و ترجمان أفكارهم و أحوالهم، الذي يحتل مكانة بارزة لدى العرب؛ فقد كانوا يحتفلون بميلاد شاعر، ويُعدّونَه حدثا مهمًا.

ونظرًا لقداسة الشِّعر في ثقافتنا العربية، نجد كثير من الرّحلات العربية عمومًا، والجزائرية خصوصاً تُضمِّن العديد من الأشعار في متن الرّحلة، وقد تكون هذه الأشعار من إبداع و نظم الرّحالة نفسه، أو من تأليف غيره، و تعد الرّحلة مصدرًا مهمًا في الحفاظ على النصوص الشعرية من الضياع و التّلف، و قد أشارت إلى ذلك نوال الشوابكة في كتابها "أدب الرّحلات الأندلسية والمغربية " إذ تقول: "أمّا الشِّعر، فله في معظم الرّحلات وجود ملحوظ وكان من محك يات الرّحلة مثله مثل الأحاديث و الأخبار، والمشاهدات، والقضايا اللّغوية، وغيرها، لهذا أُعدّت الرّحلات من المصادر الهامة التي حفظت الكثير من النّصوص الشعرية من الضياع، و ربّما تضمنّت نصوصًا لا توجد في مصادر أخرى، وهو ما يضفي على هذه الرّحلات قيمة أدبية كبيرة" [2].

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص226.

(2) نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرّحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان، ط1، 2008، ص271.

بلغ مجموع الشواهد التي ضمنها الرَّحالة الجزائري سعد الله في رحلته، ثلاثة شواهد فقط.

الشاهد الأول: وهو بيت للإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– ، استحضره الرّحالة في أثناء حديثه عن محاسن السّفر وما يحققه من فوائد جمّة، والذي يقول فيه:

"تفرج همّ واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد"[1]

أما الشاهد الثاني: عبارة عن بيت للمتنبي، والذي يقول فيه:

"أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم"[2]

تذكر هذا البيت حين لاحظ با حثا أجنبيا يتردد على المكتبة، ويسأل عن معنى بعض الكلمات والألفاظ الغامضة الواردة في ديوان المتنبي، فسأل عنه ، فقيل له: "إنّه مستعرب روسي يسمى ماكسيم كيكتيف، وهو أستاذ الآداب العربية من جامعة موسكو، قد جاء إلى المغرب للإطلاع على نسخة نادرة من ديوان المتنبي الذي يقوم بتحقيقه (...) وكان يسأل المشرفين على بعض غوامض التراكيب عند المتنبي، وقد تذكرت عندئذ قول المتنبي عن قوافيه" [3]، وهذا يدل على اهتمام الدارسين ا لأجانب بالموروث الفكري العربي و حرصهم على تعلُّمه.

والشاهد الثالث و الأخير تضمين الرّحالة لمطلع القصيدة المشهورة المنفرجة لابن النحوي، حيث يقول في هذا الصدد : "وأذكر أن الحديث شمل أيضا أثر الشيخ الجزولي صاحب (دليل الخيرات) في المغرب العربي، و الخزرجي صاحب (الخزرجية) المشهورة (...)، وابن النحوي صاحب القصيدة المشهورة (المنفرجة) التي كنت حديث عهد بشرح العالم الجزائري أحمد النقاوسي عليها، والتي تبدأ هكذا:

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص205.

(2) المصدر نفسه، ص 220.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج" [1].

إن تضمين الرّحالة لهذه الأبيات الشعرية في متن الرّحلة د ليل على سعة ثقافته واطلاعاته ومقدرته الأدبية و الفنية، بالإضافة إلى كسر رتابة السرد وإبعاد الملل عن القارئ، فلم يكن سعد الله مجرد مؤرخ وباحث في تاريخ الجزائر ا لثقافي بل كان أدبيا له أسلوبه ولغته التي ترتقي إلى الأدبية.

3. **السّرد:**

من مسلمات الأمور أن النصّ الرّحلي يقوم على عنصر السرّد، فلا توجد رحلة تخلو منه، فأيّ رحالة يسعى إلى سرد وحكي مختلف الأحداث والمواقف التي تعرض لها وصادفها في أثناء رحلته.

والسرّد في أبسط مفهوم له : "الطريقة التي يعبر بها الإنسان عن نفسه و عن أفكاره في المجتمع" [2].

فالسرّد هو الكيفية التي يعبر بها الشخص عن مواقفه، وأحواله و عن آرائه المتنوعة في الوسط الذي يعيش فيه.

إن السرّد في الرّحلة ضرورة لابدّ منها، فنجد عبد الرّحيم مؤ دن يرى أن "الرّحلة سرد، إنها حكاية انتقال سارد من مكان إلى مكان آخر" [3]، ونقصد بالسّارد هنا الرّحالة.

من هذا المنطق نجد الرّحالة أبو القاسم سعد الله وظف تقنية السّ رد في رحلته انطلاقا من عنوان الرّحلة "رحلتي إلى المغرب" فالسّارد يعلن عن نفسه من بداية الرّحلة من خلال توظيفه لضمير المتكلم "رحلتي"، أي أن الرّحالة أبو القاسم سعد الله هو السّارد.

بدأ الرّحالة سرد الأحداث التي تعرض لها انطلاقا من لحظة سفره من الجزائر العاصمة عبر طائرة البوينغ التونسية، حيث شعر بإحساس قوي، و هو يحلق فوق التراب

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص225.

(2) عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011، ص203.

(3) عبد الرّحيم مؤدن، أدبيّة الرّحلة، ص28.

المغربي، إذ يقول: "وعندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخ يم أن الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النواصر، و شعرت عندئذ أن الطائرة كانت حمامة سلام بين الأقطار الثلاثة"[1].

ويواصل الرّحالة سرد رحلته، فيقول: "ولم تستغرق الإجراءات في مطار النواصر سوى بضع دقائق، (...)، وخرجت من المطار و أخذت مقعدا في السيارة العمومية التي تصل إلى المطار بمدينة الدار البيضاء، بعد أن دفعت مقابل ذلك خمسة دراهم (5 دنانير جزائرية)، كانت المسافة بين المطار ووسط المدينة حوالي خمسة وثلاثين كيلومترا" [2].

سرد الرّحالة المواقف التي صادفته في أثناء تو اجده بالمطار لحظة خروجه منه، فحدد قيمة المبلغ الذي دفعه، والمسافة الفاصلة بين المطار ووسط المدينة.

ثم ينتقل الرّحالة في اليوم التالي إلى الخزانة العامة للبحث عن المخطوطات التي تهمه، فيسرد ذلك حيث يقول: "وعندما فتحت المدينة أبوابها على الساعة الثامنة توجهت إلى الخزانة العامة (المكتبة الوطنية) بحثا عن المخ طوطات التي جئت م ن أجلها (...) وكانت الخزانة العامة تقع بالقرب من كلية الآداب لجامعة محمد الخامس" [3].

توجه الرّحالة إلى المكتبة الوطنية على الساعة الثامنة، و شرع في البحث عن الكتب التي تهمه، كما حدد للمتلقي موقع المكتبة.

بما أنّ السرّد هو الطريقة التي يختارها الكاتب ليقدم بها الحدث إلى المتلقي، من خلال المكونات السّردية (السارّد: الرّاوي/ المؤلف، و السرّد: الحكي، و المسرود له: المتلقي/ القارئ)، سنحاول استخراج هذه المكونات السردية من نصّ الرّحلة.

أ- **السّارد:** وهو المؤلف أبو القاسم سعد الله ص احب المدونة التي نشتغل عليها، و هو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرّحلة، فالرّحالة قدم لنا تجربة ذاتية؛ ل ذلك نجد الأنا

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص206.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

حاضرة باستمرار، و نستدل على ذلك من خلال ضمير المتكلم الذي طغى على متن الرّحلة (أنا، زرت، خرجت...) فالرّحالة أبو القاسم سعد الله يعلن عن نفسه مباشرة دون تخفي من بداية الرّحلة –أي من العنوان– كما أشرنا سابقا، كما أنّه الشخّصية المركزية، والتي تظهر لنا: شخصية مثقفة، باحثة، منفتحة، اجتماعية، ويتضح ذلك من خلال زياراته المتكررة لمكتبات المغرب، و سعيه الدائم في البحث عن المخطوطات و التّ نقيب عنها، ولقاءاته بالعديد من رجال العلم و الباحثين من مثل : الأستاذ الكتاني، وعبد الكريم كريم، وعباس الجراري، حيث يقول : "توجهت إلى الخزانة العامة (...) بحثا عن المخطوطات التي جئت من أجلها" [1]، وقوله أيضا: "منذ ذلك اليوم بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن " [2]، كما أنّه على دراية بمختلف الكتب القيمة، حيث يقدم للمتلقي معلومات مستفيضة عن الكتب التي شاهدها، فيقول مثلا : "رأيت لأبي القاسم الزياتي كتابه (الترجمان المعرب) نصفه بخط المهاجر الجزائري أبي حامد العربي المشرقي، أي من صفحة 341 إلى آخر الكتاب الذي يصل إلى صفة 632، وكان الزياتي قد ألف كتابه هذا في مدينة تلمسان، وقد بدأه بآدم عليه السلام، ومن أبوابه آل عثمان وفتوحاتهم (الباب14)، وبنو مرين وبنو عبد الواد حتّى تغلب الترك (الباب 18)" [3].

فالسّارد هنا يحكي لنا قصة كتاب أبو القاسم الزياني بالتفصيل (عدد الصفحات، مكان التأليف، أبوابه...).

ب– السّرد: تقوم الكتابة الرّحلية على السرّد؛ مادامت تنقل للمتلقي –المسرود له– أحداثا ومشاهدات و أفعال قام بها الرّحالة انطلاقا من لحظة خروجه إلى لحظة عودته، فالسّ رد يبدأ مع بداية الرّحلة و يستمر إلى نهايتها، ومن هنا نجد الرّحالة أبو القاسم سعد الله يسرد يومياته أولا بأول، حيث كان يسجلها في نهاية كلّ يوم يصب فيها مشاعره و يتحدث عن

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص206.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص233.

لقاءاته بمختلف رجال العلم و الباحثين العرب والأجانب، و بعد عودته إلى أرض الوطن – الجزائر– نظر فيها –يومياته– بدا له "ما يصلح للنشر الآن و ما لا يصلح للنشر إلاّ بعد انقضاء جيل" [1]، و هذا القسم الذي بين أيدينا هو ما رآه –الرّحالة– يصلح للنشر في الظروف الرّاهنة، فنجده يسرد لنا يومياته بالتفصيل، إذ يقول : "وفي الصباح خرجت حوالي السادسة و النصف من الفندق وشرعت في التجوال في الجزء الأعلى من شارع محمد الخامس(...) إلى أن وصلت إلى جامع السنة (...) وقد وجدت مكتوبا عليه أن الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785م و أن الذي جدده هو الملك الحسن الثاني 1969م، وقد قيل لي بأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لبناء كنيسة مكانه، ولكن الخطة لم تنجح لمعارضة المغاربة، فبنوا الكنيسة غير بعيد منه" [2].

أخبر الرّحالة المتلقي بوقت خروجه من الفندق، و تجوله في الشارع، إلى غاية وصوله إلى جامع السنّة، ليدخل بعدها في غمار السرّد ليقص لنا حكاية هذا الجامع –جامع السنة– وتاريخ إنشاءه.

ومن أمثلة السرّد، أيضا، حين سرد الرّحالة أحداث سيره من الدار البيضاء إلى الرّباط، حيث يقول : "وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف و عندما تحركت السيارة من الدار البيضاء في اتجاه الرّباط، وقد سقط الليل، و بدأت أنوار المدينة تتلألأ (...) وقد قطعنا المسافة في حوالي ساعة ونصف" [3].

والملفت في متن الرّحلة يلاحظ أن أغلب المقاطع السردية جاءت في زمن الماضي، كما هو الحال في النصّ السابق (كانت، تحركت، سقط، بدأت ...) وبقية نصوص الرّحلة، كما نلاحظ اختلافا في التفاصيل المتعلّقة بالزمن، فنجد الرّحالة أحيانا يذكر اليوم والشهر والسنّة مثل قوله: "وكان يوم الأحد 13 أوت 1973 يوما مليئا بالتجارب، إنه يوم الدار

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص204.

(2)المصدر نفسه، ص208.

(3) المصدر نفسه، ص206–207.

البيضاء" [1]، وأحيانا أخرى يكتفي بذكر اليوم فقط، فيقول : "وفي أحد أيام الآحاد غضبت شمسه" [2]، وفي موضع آخر يوظف ألفاظ دالة على الزمن مثل : (أحد الأيام، مساء، الصباح، الليل...)، كما عُنّي الرّحالة بتحديد الوقت، فيقول : "استغرقت الرّحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النواصر بالمغرب، ساعة وربعًا، (...) كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع"[3].

كما حدد الرّحالة أبو القاسم سعد الله الفترة الزمنية التي قضاها بالمغرب، إذ يقول : "زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي من 29 يوليو إلى 19 أغسطس 1973"[4]، فرحلة أبو القاسم سعد الله دامت واحد وعشرين يومًا.

ج -**المسرود له:**

وهو المتلقي، إلا أنّ المسرود له في النّصوص الرّحلية، "مستوى من مستويات السّارد الذي يمارس إرسال خطابه نحو ذاته قبل إرساله إلى الآخر" [5].

فالرّحالة يعمل على تدوين مختلف المشاهدات وا لأحداث التي تعرض لها في الرّحلة؛ فيقوم بتحويل المرئي إلى كتابة، حيث:" يتحوّل السّارد [الرّحالة] إلى مسرود له يكتشف ذاته من خلال المكتوب الجديد " [6]، ونستدل على ذلك من خلال قوله :" وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات ..." [7] فالرَّحالة بعد عودته إلى بلده الجزائر نظر في أحداث رحلته، أي أن الرّحالة أبو القاسم سعد الله هو المسرود له – أولا– ؛ فكلّ رحالة في أثناء قيامه بالرّحلة يوجد في وضعية المسرود له، ثم يأتي القارئ ثانيا.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص221.

(2) المصدر نفسه، ص228.

(3) المصدر نفسه، ص206.

(4) المصدر نفسه، ص205.

(5) عبد الرّحيم مؤدن، أدبيّة الرّحلة، ص39.

(6) المرجع نفسه، ص39.

(7) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص204.

وممّا تقدم نخلص إلى القول بأن السّارد و المسرود له في الرّحلة هو الرّحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله الذي نقل أحداث رحلته معتمدًا على السّرد الذي ارتبط بالزمان.

4-الوصف:

إنّ الوصف من الرّكائز الأساسية التي يقوم عليها أدب الرّحلة، و الوصف "تقديم (تمثيل) الأشياء والكائنات والمواقف أو الأحداث في وجودها المكاني عوضا من وجودها الزمني" [1].

وبهذا يكون الوصف تصوير أو تجسيد لشيء أو كائن أو موقف أو حدث في مكان ما.

وللوصف أبعاد جمالية وفنية تكمل في تجسيد ملامح الشّخصية ورسم المكان، وإضاءة الحدث، لذلك كانت الأغراض الأولية للوصف "تصوير انطباع حسي والدلالة على مزاج نفسي، كما يحاول الوصف أن يجعل تلك الانطباعات الحسية أو الحالات الوجدانية مماثلة عند القارئ من ناحية حيويتها ومشابهتها للواقع" [2]، مما يمنح المتلقي صورة ماثلة عن الشيء الموصوف تجعله يتصور ه في مخيلته و يربطه بالواقع، كذلك الرّحالة يسعى إلى تصوير كل ما وقعت عليه عيناه، من مشاهد تتعلق بالمسالك والممالك، ومختلف التفاصيل الدقيقة كالعادات والتقاليد و المناسبات... ونقل للأحداث و المرويات...، مازجًا تلك الأوصاف بمشاعره و عواطفه، ما يجعل الرّحلة تنبض بالحياة، وتحقق المتعة و التشويق للمتلقي الذي يحس و كأنّه رحالة؛ ليدخل في عالم الرّحلة.

---

(1) جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص43.

(2) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العم الية للطباعة والنشر، صفاقص، (د.ط)، 1988، ص407.

والوصف يرتبط بالمكان، و هذا ما أشار إ ليه سعيد يقطين في كتابه "السرد العربي" حيث يقول: "الوصف فعل مكاني إنّه توقيف لزمان السرد لمعانقة ثبات المكان" [1]، أي أنّ الوصف مرتبط بالمكان و السرّد مرتبط بالزم ان، فالبعد المكاني إذًا يتجسد و يتحقق من خلال آلية الوصف.

والرّحلة التي نشتغل ع ليها تحفل بالوصف، حيث برع الرّحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله في وصف الشّخصيات، والكتب، والأماكن، والعادات و التقاليد وغيرها، و نستهل الحديث بـــ:

أ- وصف الشخصيات:

جاءت شخصيات الرّحلة شخصيات واقعية من لحم ودم؛ لها وجود فعلي و حقيقي على أرض الواقع.

عمل الرّحالة على وصف مختلف الشّخصيات العلميّة التي رآها وجالسها، والتقى بها وصفا خارجيا ومعنويا، فاهتم بأخلاقهم وتخصصاتهم ومستواهم التّعليمي و الثقافي، وحتّى حياتهم العائلية، فنجده يصف الأستاذ عبد السلام الفاسي وصفا خارجيا، فيقول : "ورأيت وأنا في المكتبة شيخا كبير في السن طويل القامة أبيض البشرة مرتديا ثيابا مغربية خفيفة وحذاء أصفر، جالسا في ناحية منعزلة من القاعة، و كان يرفع صوته إذا تحدث " [2]، ويقول، أيضا، في وصف الأستاذ عبد الله عنان المؤرخ المصري : "وأثناء وجودي في الخزانة العامة دخل شيخ طاعن في السن على رأسه قبعة رمادية (رغم الصيف) ويميل إلى القصر، و عليه سمة المصريين، إنّه الأستاذ عبد الله عنان المؤرخ المصري " [3]، اعتمد الرّحالة هنا على الوصف المادي ليعدد لنا صفات هذا الشيخ.

---

(1) سعيد يقطين، السّرد العربي : مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط 1، 2006، ص195.

(2) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص212.

(3) المصدر نفسه، ص213.

اهتم الرّحالة، أيضا، بالجانب العلمي و الثقافي لشخصياته، فذكر تخصص كل شخصية التقى بها، مثل الآنسة نادية داودي، حيث يقول : "ومن الجزائريين الذين التقيت بهم في المكتبة الآنسة نادية داودي و هي تعد أطروحة في النثر الفني الجزائري خلال القرن الماضي أوائل الحالي لنيل شهادة دكتوراه الدرجة الثانية من جامعة الجزائر " [1]، وتعرّف الرّحالة على الأستاذ محمد حجي الذي يُدرس التاريخ، فيقول : "والأستاذ حجي يدرس التاريخ في آداب جامعة محمد الخامس، و قد علمت أنه كتب رسالة نال بها دبلوم في التاريخ عن (الزاوية الدلائية) ودورها في تاريخ المغرب" [2].

ومن بين الشخصيات التي اهتم بها الرّحالة، شخصية الأستاذ محمد المنوني، فيقول عنه: "معظم المثقفين المغاربة يعرفون الأستاذ محمد الم نوني، يعرفونه حيا عاملا في صمت، ويعرفونه كذلك مؤلفا باحثا خبيرا بالمخطوطات، و أستاذ في إحدى الثانويات " [3]، يتضح من خلال قول ال رّحالة مدى شهرة الأستاذ محمد الم نوني، وخبرته بمختلف المخطوطات، كما أنّ وصفه بالهدوء و الحياء.

كما أُعجب الرّحالة بطيبة و أخلاق من لقيهم من رجال العلم، فوصف ذلك، فهذا الدكتور عبد الكريم كريم لم يبخل على الرّحالة بوقته، فكان بمثابة المرشد الذي يهتدي به الرّحالة، فيقول عن ذلك : "ولم يبخل علي الدكتور عبد الكريم بوقته و إمكانياته، فقد تجول بي في حي السويقة (...) ولكن خدماته لي لم تنته عند ذلك الحد، ففي صباح الغد حدثني مولاي الطاهر في المكتبة بأن الدكتور كريم قد هتف له من الوزارة و أوصاه بي خيرا، (...) وكما لم يبخل علي الزميل كريم بعلمه فإنه لم يبخل علي بطعامه، فقد دعاني للغداء على مائدته، وقد حملني من الفندق في سيارته" [4].

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص211-212.

(2) المصدر نفسه، ص212.

(3) المصدر نفسه، ص213.

(4) المصدر نفسه، ص215-217.

ولم يستثن الرّحالة وصف الحياة العائلية لشخصياته، فنجده يصف لنا عائلة صديقه عباس الجراري، فيقول : "وتناولنا الغداء بمشا ركة حرمه التي تشتغل بالمحاماة و أطفاله الثلاثة محمد وألوف وعلاء، وكانت حرمه عندئذ تحامي في محكمة القنيطرة، بينما كانت تجري محاكمة أخرى في الدار البيضاء" (1).

ب- وصف الكتب:

بما أن الرّحلة علمية، لم يستث ن الرّحالة و صف مختلف الكتب والمخطوطات التي تهمه، وتهم غيره من الباحثين في المشرق والمغرب العربي، وقد اعترف بذلك قائلا: "وقد ذكرت في آخر هذا العرض أسماء المخطوطات التي لم تكن تهمني مباشرة لأني أعرف أنها تهم بعض الباحثين في المغرب العربي والمشرق" (2).

فوصف الرّحالة الكتب و المخطوطات التي شاهدها في مختلف المكتبات حيث كان يتردد، أو التي أُهديت له من قِبَلْ رجال العلم، حيث أهداه الأستاذ الكتاني مجموعة من أعماله الأخيرة، ذكر -الرّحالة- منها:

"1- أبو عبد الله بن المناصف ، المجتهد المغربي، فصلة من مجلة (الباحث)، عدد 2، 1972، ص1-72.

2- العثور على الورقات الأخيرة من كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي، فصلة من مجلة (تطوان)، عدد10، 1965، ص237-244.

3- سلفية {ألفية} الإمام مالك، دراسة في 39 صفحة، (دون ذكر مكان طبعها، و لا تاريخ).

4- بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس جمعية ال علماء، دراسة في 8 صفحات على الآلة الراقنة نشرها في جريدة (العلم) المغربية، سنة 1951، (...).

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص218.

(2) المصدر نفسه، ص204.

5- بيان تاريخي من م ثقفي المغرب حول سياسة التعليم و الغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي، موقع من 500 شخصية مغربية، الرباط، 1970، 45 صفحة.

6- واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها، نبذة في أربعة صفحات على الآلة الراقنة عن حياة المرحوم الإبراهيمي، وصلة المؤلف به.

7- صورة تذكارية بتاريخ 1935 بمدينة الجزائر، و تجمع الصورة الشيخ الكتاني جالسا بلباسه المغربي بين الشيخين ابن باديس و الإبراهيمي(...)" [1].

كما سعى الرّحالة جاهدا فـي وصف و تقديم معلومات مستفيضة عن الكتاب، الطبعة، التاريخ...، فيقول مثلا: "تحدث زميلي كريم بحماس عن كتاب عبد العزيز الفشتالي الذي حققه و نشره بعنوان (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشُّرفا) وقد أهداني نسخة منه، وهو من مطبوعات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية والثقافية لسنة 1973، ويقع في 307 صفحات بدون الفهارس، وقد كَتبَ له مقدمة في 24 صفحة، وفي الكتاب أخبار كثيرة عن العلاقات الجزائرية المغربية خلال القرن السادس عشر ميلادي" [2].

ومن الكتب التي وصفها الرّحالة، أيضا، تلك التي أهداه إياها الدكتور عباس الجراري، حيث يقول: "ومما أهداني كتابه عن (الزجل في المغرب- القصيدة) التي نال بها شهادة الدكتوراه في الآداب مصر، (ط، المغرب، 1971، 715 صفحة)، ثم تتالت علي كتبه وأبحاثه: من وحي التراث(ط. المغرب، 1971، 184 صفحة)، و الثقافة في معركة التغيير (ط. المغرب، 1972، 195 صفحة)، و موشحات مغربية (المغرب، 1973، ؟ صفحة)" [3].

إنّ هذه المعلومات التي قدمها الرّحالة عن مختلف الكتب و المخطوطات، هي معلومات قيمة لا غنى عنها، تفيد الدارسين والباحثين كثيرا.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص210.

(2) المصدر نفسه، ص216.

(3) المصدر نفسه، ص217.

تطرق سعد الله إلى وصف الثمن الزهيد للكتب في المغرب، فيقول : "دخلت أتصفح بعض الكتب فوجدت نسخة مجلدة سليمة من كتاب (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا في طبعته الأولى (1903)، وسألت عن الثمن فقيل لي خمسة و عشرون درهمًا، و هذا في الواقع ثمن زهيد بالنسبة لقيمة الكتاب " [1]، إن الثمن الزهيد للكتب دليل على تشجيع القراءة، ودفع الفرد المغربي إلى المطالعة لتوسيع دائرة الثقافة.

وهذا الوصف للكم الهائل من الكتب و المخطوطات، ما هو إلاّ نماذج قليلة مما شاهد الرّحالة، ولو أسهب في الحد يث عنها، لاحتاج إلى وقت كثير؛ و هو يسعى إلى الإيجاز وذلك لعدم تخصيصه للرّحلة كتلبا مستقيلا –كما أشرنا سابقا– وبهذا الصدد، يقول: "ولعلي لو ذكرت هنا كل ما وقعت عيناي عليه من كتب الرّحلات والتاريخ وا لآداب، خلال رحلتي لأثقلت على القارئ، وحسبي هذه العجالة. أمّا ما طالعته عن الجزائر بأقلام جزائرية فحدث على البحر ولا حرج و هو بيت القصيدة من كلّ رحلة، و لعلي أقدمه في مناسبة أخرى" [2].

ج– وصف المكان:

المكان هو النواة الأساسية الـتي يؤسس عليها الرّحالة رحلته، و كما أشرنا سابقا بأن الوصف مرتبط بالمكان، لذلك كان حضوره أمرًا بديهيا، فنجد في كثير من محطات الرّحلة وصفا لمدن المغرب وشوارعها التـي ترقل الرّحالة بين أزقتها، و من بين الأماكن التي وصفها: جامع السرنّة، يقول: "شرعت في التَّجوال في الجزء الأعلى من شارع "محمد الخامس" (...) إلى أن وصلت إلى جا مع السنة وهو جامع ضخم و حديث مبنى على الطراز الأندلسي المغربي (...)، ويضاء هذا الجامع ليلا كما تضاء صومعته العالية فيُرى من بعيد كأجمل ما تكون الرؤية (...) ويوجد على يمين هذا الجامع ثانوية مولاي يوسف، وعلى جنبات هذا الجزء من شارع محمد الخامس عدد من المنشآت الإدارية (...) وفي

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص214.

(2) المصدر نفسه، ص234.

وسط الشارع حدائق غناء تكسوها الخضرة وتعلوها الأشجار الباسقة، و تتفرع منه شوارع تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية" [1].

برع الرّحالة في وصفه لجامع السنة، فقدّمه في أحسن وأبهى صورة تسرّ المتلقي، وتجعله متلهفا لرؤيته، كما أُعجب بطبيعة شوارع المدينة الجامعة بين الأصالة والمعاصرة.

ومن بين الأماكن التي جذبت انتباه الرّحالة و قام بوصفها "القصر الملكي" بمدينة الدار البيضاء، إذ يقول: "وقد رأيت هناك من بعيد القصر الملكي الواقع مباشرة على شاطئ المحيط، و لا تظهر منه لراكب السيارة سوى بعض القباب والجدران و بعض المداخل المحروسة، أما باقي فتحجبه الأشجار " [2]، وصف الرّحالة القصر الملكي من الخارج؛ فعلى الرغم من بعد المسافة وضيق مجال الرؤية، و قِصر الزمن –مر عليه بالسيارة رفقة صديقه الجراري وأسرته–، إلاّ أن صورته ظلت ماثلة في ذهنه.

وفي موضع آخر، عبر الرّحالة عن شدة إعجابه بمدينة الدار البيضاء، و وصفها بأنها مدينة تجارية، فيقول عنها : "والدار البيضاء مدينة تجارية ب كل معنى الكلمة، ففيها الشركات والبنوك المغربية والأجنبية بأعداد ضخمة، (...) وتتمتع بساحات حديثة وشوارع فسيحة تتخللها الفوارات والأشجار والحدائق، و فيها مركز تجاري جزائري إلى جانب مقر شركة الخطوط الجوية الجزائرية، و يحس المرء في هذه المدينة بأنه في نيويورك أو باريس لولا منافسة العربية للفرنسية في العناوين والإعلانات" [3]، يظهر في هذا المقطع شدة إعجاب وافتتان الرّحالة بالمدينة، و الأثر الجميل الذي تركته في نفسيته، كما أنه أجاد في تمثيل الصورة للقارئ لمعرفة المكان الموصوف.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص208.

(2) المصدر نفسه، ص221.

(3) المصدر نفسه، ص222.

ومن الأماكن التي أحس في ها الرّحالة بالانبهار و الغرابة؛ زيارته لضريح محمد الخامس، فيصفه قائلا : "يمثل أعجوبة في الصنعة والذوق و المهارة، فهو يحتوي على فسيفساء نادرة، ورخام ملون، ونقوش مذهبة في الأسقف والجوانب العليا، و قد حفرت آيات من القرآن الكريم على مدار القبة الخضراء و الصفراء التي يزيدها لمعان الكهرباء جلالا وجمالا" [1]، اهتم الرّحالة بوصف مختلف التفاصيل الجزئية الموجودة في الضريح، وذلك لتقريب وتجسيد الصورة من القارئ.

واصل الرّحالة وصفه للعديد من الأمور التي صادفته في رحلته حتّى أنّه وصف منزل آل الصائغ –أصهار الجراري– الذين أحسنوا ضيافته بدعوته إلى تناول العشاء بمنزلهم، إذ يقول فيه: "وهو عبارة عن مغنى (فيلا) ضخمة من طابقين، و في القاعدة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية، وفيها أجزاء منقوشة بنقوش مغربية –أندلسية– وقد علقت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة، و في طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر، و على الجدران علقت بعض صور الأسرة" [2].

كان وصف سعد الله لهذا المنزل دقيقا جدًا، إذ لم ينس أي تفصيل، حيث يجيد كالعادة تصوير الأماكن المختلفة التي تركت انطباعا حسنا في نفسيته، فيقدمه في صورة جمالية، ماثلة للقارئ.

د– وصف العادات والتقاليد:

وصف الرّحالة سعد الله العادات والتقاليد التي يتميز بها أهل المغرب، ومن بين التقاليد التي وقف عندها، اللّباس المغربي؛ حيث يحرص المغربي على ارتداء الجلابة المغربية، وهو خاص بالمرأة و الرّجل، إلا أن الفرق بينهما طريقة التطريز، فقد لاحظ الرّحالة أن

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص227.

(2) المصدر نفسه، ص223.

معظم نساء المغرب يلبسن "جلابة مغربية "[1]، وكذلك الحال بالنسبة للرّ جال ففي أثناء تواجده بالمكتبة شاهد شيخا كبير السن يرتدي "جلابة مغربية وطربوشا"[2].

كما تخلل هذه الرّحلة وصفا للكرم السخي الذي يتميز به سكان المغرب، فتجدهم يرحبون بالضيف الزائر، و يدعونه لحضور مائدتهم، المزينة بأشهى وأبهى الأطباق التقليدية، وقد أعجب الرّحالة بذلك الجو د و العطاء، فيقول: "تناولنا العشاء في منزل آل الصائغ على الطريقة المغربية التقليدية، بغسل الأيدي قبل و بعد الأكل، ثم تناولنا الطعام بمقدمة الأصابع في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة " [3]، يتضح أن هذه الجلسة كانت في مجملها تقليدية، فقد استغنى الرّحالة و من معه عن الملاعق؛ فمن عادات أهل المغرب تناول الطعام بالأيدي، وهذا ما أشار إليه الرّحالة، إذ يقول : "تناولنا الغداء بالأيدي كعادة المغاربة"[4]، وقوله أيضا: "استغنينا بالأصابع عن الشوك و الملاعق" [5].

والطعام المقدم على مائدة الطعام تقل يدي مغربي أصيل يعبر عن الموروث الثقافي لأهل المغرب؛ وصف الرّحالة مختلف الأطباق التقليدية التي وضعت على المائدة "تحلقنا على مائدة دسم ة تبدأ بالبسطيلا المسكرة بالملو زة، وتثنى بالدجاج المحمر المتبل و تنتقل إلى الكسكسي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، و تختم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء" [6].

ومن عادات و تقاليد المغاربة ، أيضا، الجلوس على الزرابي الم نقوشة بالزخرف المغربي الأصيل، و قد أشاد الرّحالة بذلك ، فيقول : "فبعد الجلوس في قاعة مفروشة

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص207.

(2) المصدر نفسه، ص213.

(3) المصدر نفسه، ص223.

(4) المصدر نفسه، ص217.

(5) المصدر نفسه، ص225.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالزرابي المنمقة والأرائك الهشة والمحلاة بالتحف الثمينة، و المناضد المنقوشة بالزخرفة المغربية الأصيلة" [1].

وخلال تجول الرّحالة بين أحياء و شوارع المغرب شد انتباهه تلك الشوارع المغربية التي "تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية، مثل القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس بيروت وحلب و حمص، وهو تقليد أجاد فيه المغاربة" [2]، وهي طريقة تقليدية أجاد فيها المغاربة للمحافظة على التراث العرب ي الإسلامي من الاندثار والزوال.

كما أشار الرّحالة إلى اللغة التي يتحدث بها المغاربة، فيقول : "والناس يتكلمون في الشوارع والدكاكين، وفي الحافلات ودور السينما بالعربية و قلما تسمع لغة أجنبية" [3]، كما أن المغربي "يستطيع أن يكتب الحوّ الة، ويعنون الرّسالة، و يسجل البويد، و يترافع في المحاكم بالعربية" [4]، دون إحراج ولا عقد، وهذا دليل على غيرة الفرد المغربي على لغته لغته والتمسك بها و الدفاع عنها إذا اقتضت الحاجة فهي تمثل هويته العربية المغربية الإسلامية.

إن مختلف العادات و التقاليد التي يزخر بها المغرب تدل على مدى تمسك المجتمع المغربي بأصالته وحضارته والاهتمام بها، و حرصه الشديد على التّعريف بها للمجتمعات الأخرى.

واصل الرّحالة وصفه للعديد من الأمور التي صادفته في رحلته، حتّى أنه لم ينس وصف جو المغرب، حيث يقول : "كان طقس الرّباط أكثر لط فا من جو عاصمة الجزائر

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص224.

(2) المصدر نفسه، ص208.

(3) المصدر نفسه، ص230.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الرطب، وتتخلل الأنفاس نسمات منعشة يرسلها بحر الظلمات فتكسر من حدة لفح سموم الصحراء المترامية" [1].

وهناك نماذج أخرى في الرّحلة عن الو صف إلّا أنّنا لم نتطرق إليها، و بهذا يكون الرّحالة قدم لوحة كاملة عن أهل المغرب، معتمدا على آلية الوصف؛ فقدم وصفا مستفيضا لكل ما صادفه ؛ من شخصيات، وكتب ، وأماكن، وعادات وتقاليد و غيرها، ممّا م نح نصّ الرّحلة سحرًا وجمالا ومصداقية أكثر.

5- الحوار:

يُعُدّ الحوار من أهم وسائل الاتصال بين النّاس، فهو من الأساليب الحضارية ال تي يتم من خلالها تبادل الآراء و وجهات النّظر، بعيدا عن التّعصب و التّطرف للوصول إلى الهدف المنشود، كما أنّه الوسيلة الأوثق و الأصدق للتعبير عن النفس الإنسانية، لذلك كان الحوار "عرض (درامي الطابع) للتبادل الشفاهي يتضمن شخصيتين أو أكثر " [2]، وعليه فالحوار هو تبادل الكلام بين شخصية و شخصية أخرى أو بين مجموعة من الشخصيات، في موضوع معين؛ أي أنه لابد من وجود متكلم ومخاطب ورسالة.

والحوار من آليات ا لخطاب الرّحلي، إلى جانب السرد والوصف، ومن الطبيعي أن يورد الرّحالة هذا العنصر في رحلته، فهو لا يعيش بمعزل عن النّاس، بل يلتقي ويتعامل ويتناقش مع شخصيات متعددة و مختلفة، إلّا أن المشاهد الحوارية في رحلة سعد الله كانت قليلة جدًا، مقارنة مع السّرد و الوصف اللذان نالا حصتا الأسد، و السبب في ذلك يعود إلى تفادي الرّحالة للقاء الأشخاص و الاتصال بالأصدقاء، و هذا حتى يتفرغ للبحث الذي جاء من أجله (تاريخ الجزائر الثقافي)، ونجده يعترف بذلك، فيقول: "كنت حريصا أثناء إقامتي بالمغرب على توفير كل وقتي للبحث الذي جئت من أج له، لذلك تفاديت لقاء الأشخاص،

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص208.

(2) جيرالد برنس، قاموس السرديات، ص43.

والاتصال بالأصدقاء"[1]، إلاّ أننا نلمس هذه التقنية في بعض مقاطع الرّحلة، حي ث أورد الرّحالة حوار جرى بينه وبين مفتش الحقائب الذي رحب به بود، فيقول: " وعندما اقتربت من مفتش ال حقائب سألني من أين، فقلت له من الجزائر، فقال بود : أهلاً وسهلاً ، تفضل!"[2].

ونجد أيضا حوار دار بين الرّحالة، و الأستاذ محمد حجي، حول مستوى الثقافة في المغرب العربي، إذ يقول : "وتذاكرت معه قليلا لأنه كان أيضا في العطل ة، تحدثنا عن مستوى الثقافة في المغرب العربي على عهد العثمانيين، و سألته عن كتاب العكازين الذي ألفه القسنطيني خلال القرن السادس عشر" [3].

كانت الغاية من الحوار هنا مناقشة مسائل علمية و ثقافية تخص الم غرب العربي في العهد العثماني، والاستفسار عن كتاب العكازين الذي يبحث عنه الرّحالة في المغرب.

كما تخلل الرّحلة حوار شيق وقصير، بين الرّحالة و صاحبه، إذ يقول: "كانت الشمس قد غربت و لم يبق في الأفق إلا الشفق، وطلع من الشرق القمر (...) وعلى بعد رأينا القطار وكأنه خيط من الضوء يتحرك الظلام (...)، فقال صاحبي إنّ قطار طنجة قادما إلى سلا، هكذا بدت لي الطبيعة و أنا واقف أمام المحيط، على يميني ضريح و على يساري صومعة (...)، إنها ذكرى خالدة و صورة رائعة (...)، فاغرورقت عيناي و صمت في وجوم، ولاحظ صاحبي ذلك، فقال إنك لم تنظر شيئًا، لو رأيت قصر الحم راء، إن المرء هناك يفطر كبده و يصاب بالخرس، لقد أضعنا أشياء لا تعوض ! قلت هذا يكفي ! دعني أتأمل دعني!؟" [4]، جرى هذا الحوار بين الرّحالة و زميله شحلان في أثناء تجولهما في

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص209.

(2) المصدر نفسه، ص206.

(3) المصدر نفسه، ص212.

(4) المصدر نفسه، ص226-227.

صومعة حسان الشهيرة، وضريح محمد الخامس، "بتاريخ 4 أوت 1973" [1]، حيث عاد الرّحالة بالذاكرة إلى الماضي المجيد الضائع.

والملفت للانتباه أن الرّحالة اعتمد على نوع واحد من الحوار، ألا وهو: الحوار الخارجي، ولم يوظف الحوار الداخلي (المونولوج) في نصّ رحلته.

وفي الأخير نخلص إلى أن الحوار عنصر مهم لا يجب الاستغناء عنه في الخطاب الرّحلي، كما أنّه وسيلة للتفاهم و إيجاد حل وسط يرضي الجميع بطريقة حضارية ومنطقية.

(1) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، ص226.

خاتمة

خاتمة:

بعد رحلة بحث قمنا بها مع الرّحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله، نصل عند آخر محطة من البحث، ألّا وهي الخاتمة، و من خلال دراستنا لهذا الموضوع، (آليات الكتابة الرّحلية عند أبي القاسم سعد الله "رحلتي إلى المغرب أنموذجًا")، توصلنا إلى أهم النتائج، نجملها فيمايلي:

1. أدب الرّحلة من فنون الأدب العربي العريقة ، الذي يصور فيه الرّحالة كلّ ما صادفه و شاهده في أثناء رحلته، كما أنّه أ صدق الفنون في التعريف بالواقع وتصويره.
2. انفتاح أدب الرّحلة على العديد من العلوم و المعارف الأخرى، مما يحقق الفائدة للمؤرخ، والاجتماعي، والجغرافي...الخ.
3. تعددت و تنوعت دوافع الرّحلة، فهناك د وافع دينية، ودوافع علمية، ودوافع اقتصادية، وسياحية...الخ.
4. صنف الدارسون و الباحثون الرّحلة إلى عدّة أنواع، إلاّ أن الرّحلات الأكثر رواجا هي: الرّحلة العلمية، والرّحلة الدينية، والرّحلة الاقتصادية، والرّحلة الرّسمية.
5. اختلفت و تنوعت تسميات أدب الرّحلة، فهناك من يطلق عليها الأدب الجغرافي لاهتمامها بالجوانب الجغرافية والعمرانية، و هناك من يسميها أدب الرّحلة لتمييزها بطابع الأدبيةّ وهناك من يصفها بالرّحلة فقط.
6. تتجلى أدبية الرّحلة في : آليات الكتابة التي تقوم عليها من جماليةّ الأسلوب و اللغة، وحسن توظيف المحسنات البيانية والصيغ البلاغية، وتضمين الشّعر...الخ.
7. اهتم سعد الله بأدب الرّحلة وألف فيه، و أهم ما ميز رحلته أنّها غير مدونة في مؤلف خاص، وإنّما هي منشورة في كتابه "تجارب في الأدب والرّحلة".
8. يعدّ العنوان الأداة الأولى التي يتسلح بها القارئ، للولوج إلى عالم النصّ.
9. قسم الرّحالة رحلته إلى ثلاث محطات: مقدمة تحدث فيها عن الهدف من الرّحلة ألا وهو علمي، ومتن: اعتمد فيه على سرد ووصف أحداث سفره، وخاتمة.

10. حافظ أدب الرّ حلة الجزائري الحديث على البناء الشّ كلي للرّحلات القديمة من تسمية عنوان الرّحلة، ومقدمة، ومتن(بنية السّفر)، وخاتمة.
11. تمتاز الرّحلة بطابعها العلمي، فالهدف الجوهري من الرّحلة هو إنجاز كتاب تاريخ الجزائر الثقافي.
12. اعتمد الرّحالة على اللغة البسيطة و الأسلوب السهل البعيد عن الغموض والإيحاء لإيصال أحداث رحلته للمتلقي بكل وضوح وموضوعية.
13. برزت علاقة الأنا بالآخر في الرّحلة، من خلال المقارنة التي أج راها الرّحالة بين ما شاهده في المغرب، وما يوجد في وطنه.
14. اعتمد الرّحالة على آليات كتابية مختلفة في تدوين رحلته نذكرها:

- تضمين الشّعر: حيث ضمن الرّحالة ثلاثة مقاطع شعرية في نص رحلته، وهذا من أجل إبراز أدبيته وشعرية نصه وكسر رتابة السرد، وإبعاد الملل عن القارئ.
- يعدّ النصّ الرّحلي من بين النصوص السردية التي تحتوي على مكونات السّ رد (السارّد: المؤلف، الحكي : السّرد، المسرود له : المتلقي)، حيث نجد أن السّارد والمسرود له في الرّحلة هو الرّحالة ذاته.
- سرد الرّحالة مختلف الأحداث و المواقف التي تعرض لها انطلاقا من لحظة خروجه من الجزائر وصولًا إلى المغرب الأقصى.
- اهتمام الرّحالة سعد الله بالزمن، فأشار إلى اليوم، والشهر، والسنة، و حتّى الوقت بالتحديد.
- قدم الرّحالة –السارد– تجربة ذاتية عاشها في المغرب، و نستدل على ذلك من خلال ضمير المتكلم الذي طغى على الرّحلة، بدءا من العنوان وهذا ما أكسبها مصداقية أكثر.

خاتمة:

- هيمنت الوصف على الرّحلة، الذي نال حصة الأسد، حيث تفنن الرّحالة في تقديم وصف مستفيض عن كل ما صادفه من شخصيات وكتب و أماكن كما أنّه وصف بعض العادات والتقاليد المختلفة في المغرب.
- يعدّ الحوار من مكونات الخطاب الرّحلي الذي نال نصيبه في الرّحلة.

وفي الختام نرجو أن نكون قد وفق نا في هذا البحث، و لو بالقدر القليل في التّعريف بالرّحلة في الأدب الجزائري الحديث، و نشير إلى أ ن هذا البحث قابل لإعادة النظر والقراءة.

قائمة المصادر

والمراجع

1 – القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع)، دار ابن الحوزي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

2– الحديث النبوي الشريف: ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني)، سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

أولا: المصادر:

3– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1983.

ثانيا: المراجع:

4– ابن بطوطة(محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1987.

5– أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1989.

6– أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربي و نعمته"حياة أبي راس الذاتية و العلمية"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1990.

7– سعيد يقطين، السرّد العربي: مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

8– سميرة أنساعد، الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، الجزائر، (د.ط)، 2009.

9- شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر، القاهرة، ط1, 2006.

10- شوقي ضيف، الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، (د.ت).

11- صلاح الدين علي الشامي، عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999.

12- عباس أحمد أرحيلة، العنوان حقيقته وتحقيقه في الكتاب العربي المخطوط، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.

13- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، مكتبة الهدايا، دمشق، ط1، 2004.

14- عبد الرّحيم مؤدن، أدبيّ الرّحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996.

15- عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011.

16- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، (د.ط)، 1974.

17- عبد الهادي التازي، رحلة الرّحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان، الرياض، (د.ط)، 2005.

18- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1975.

19- فؤاد قنديل، أدب الرّحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002.

20- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط1، 1995.

21- نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان، ط1، 2008.

ثالثا: المعاجم:

22- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبيةِ، التعاضدية العمالية للطباعة و النشر، صفاقص، (د.ط)، 1988.

23- جبورّ عبد النوّر، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984.

24- جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر، القاهرة،ط1، 2003.

25- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، ط2، 1972.

26- شريبط أحمد شريبط وآخرون، معجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية مخبر الأدب المقارن والعام، جامعة باجي مختار، عنابة، (د.ط)، (د.ت).

27- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربيةّ في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.

28- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.

29- محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1999.

30- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

رابعا: الدواوين:

31- ديوان الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، دار الفضائل، سوريا، ط1، 2006.

خامسا: الرسائل الجامعية:

32- حفيظة زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، شهادة دكتوراه في الأدب العربي الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، قسنطينة، 2015.

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة
مقدّمة	**أ-ج**
مدخل: مفاهيم نظرية	**04**
1- مفهوم الرّحلة	**05**
أ- لغة	**06**
ب- اصطلاحا	**07**
ج- القرآن الكريم والحديث الشريف.	**07**
2- دوافع الرّحلة وأنواعها	**09**
3- تعريف أدب الرّحلة.	**12**
4- التّعريف بالرّحالة.	**14**
5- مضمون الرّحلة.	**18**
فصل أول: البناء الشّكلي للرّحلة	**20**
1- العنوان.	**22**
2- البناء الشكلي للرّحلة:	**27**
أ- مقدمة الرّحلة.	**27**
ب- بنية السفر (متن الرّحلة).	**30**
ج- خاتمة الرّحلة.	**33**
فصل ثان: آليات الكتابة في الرّحلة:	**35**
1- أسلوب ولغة الرّحلة.	**36**
2- تضمين الشِّعر.	**42**
3- السّرد.	**44**
4- الوصف.	**49**
5- الحوار.	**60**
خاتمة.	**62**
قائمة المصادر والمراجع.	**66**
فهرس الموضوعات.	**71**

الملخّص:

شهد أدب الرّحلة انتشارا واسعا في السّاحة الأدبية بالجزائر في العصر الحديث، إذ برز الرّحالة : أبو القاسم سعد الله الذي قام برحلة علميّة إلى المغرب، فتحدث بالإضافة إلى الجانب العلمي عن مختلف الجوانب التي استهوته في المغرب، ولترجمة هذه الرّحلة إلى نص نثري في محتواه، اعتمد الرّحالة على توظيف آليات كتابية مختلفة، من حيث: الأسلوب، واللّغة، وتضمين الشّعر، والسرّد، والوصف، والحوار.

من هذا المنطلق اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي التحليلي، فاشتملت الدّراسة على مقدّمة، ومدخل تناولنا فيه مفاهيم نظرية تت علّق بماهية الرّحلة في اللغة والاصطلاح ، والقرآن الكريم والحديث الشريف، ودوافعها وأنواعها، ثم تطرقنا إلى أدبيّة الرّحلة، كما عرّفنا بصاحب الرّحلة وقدمنا ملخّصا لمضمونها، وفصلين، فجاء الفصل الأوّل بعنوان " البناء الشّكلي للرّحلة " قمنا فيه بدراسة عنوان الرّح لة، ومقدمتها، وبنية السّفر فيها، وخاتمتها، ووسم الفصل الثاني بـ "آليات الكتابة في الرّحلة" تطرقنا فيه إلى تقنيات الكتابة الموظفة في متن الرّحلة على مستوى :(الأسلوب، اللغة، السّرد، الوصف، الحوار) وأخيرا خاتمة كانت حوصلة لأهم ما توصلنا إليه في هذا البحث.

Résumé

La littérature de voyage a connu une large diffusion dans l'arène littéraire en Algérie lors de l'époque contemporaine, au cours de laquelle, le voyageur « Abou El-Kacem Saâdallah » est apparu et a effectué un voyage scientifique au Maroc. En outre de l'aspect scientifique, il a également parlé des différents aspects qui lui paraissent bon au Maroc. Et pour traduire ce voyage en un texte en prose dans son contenu, le voyageur s'est appuyé sur l'emploi de différents mécanismes d'écriture en termes de style, de langue, d'inclusion de la poésie, de narration, de description et de dialogue. En ce sens, nous nous sommes appuyés dans notre étude, sur l'approche analytique descriptive. L'étude comprenait une introduction dans laquelle, nous avons traité des concepts théoriques liés à ce que c'est un voyage, sa définition, ses motifs et ses types. Ensuite nous avons abordé la littérature de voyage, comme nous avons effectué une présentation du voyageur, et avons également fourni un résumé du contenu du voyage et ainsi que deux chapitres. Le premier chapitre est intitulé « *La construction formelle du voyage* » dont on a étudié l'intitulé du voyage, son introduction, la structure du voyage et sa conclusion. Le deuxième chapitre est intitulé « *Les mécanismes de l'écriture dans le voyage »,* dans lequel, nous avons abordé les techniques d'écriture employés lors du voyage, en termes de style, langue, narration, description et dialogue). Finalement, une conclusion comprenait les résultats les plus importants que nous avons atteints dans la présente recherche.

Summary

The Travel literature has been widely disseminated in the literary arena in Algeria during the contemporary era, during which, the traveler "Abu El-Kacem Saadallah", has appeared and has made a scientific travel to Morocco. In addition to the scientific aspect, he has also spoken about the various aspects that seem good in Morocco. And to translate this travel into a prose text in its content, the traveler relied on the use of different writing mechanisms, in terms of style, language inclusion of poetry, narration, description and dialogue. In this sense, we relied in our study on the descriptive analytical approach. The study has included an introduction, in which we have treated the theoretical concepts related to the definition of the travel, its motives and types. Then we have dealt with the travel literature, as we have identified the traveler, and have also provided a summary of the contents of the travel and as well as two chapters. The first chapter is entitled "The Formal Construction of Travel", in which, we have studied the title of the travel, its introduction, the structure of the travel and its conclusion. The second chapter is entitled "The mechanisms of writing in travel" in which, we discussed the writing techniques which are used during the travel, in terms of style, language narration, description and dialogue). Finally, the conclusion included the most important results that we have achieved in this research.